الجزء الثاني

بريطانيا العظمى تقف وحيدة

obeikandl.com

obeikandl.com

حياة الأمة في الميزان

كانت دار أوبرا كرول في برلين مزدانة بألوان متألقة باهرة في 16 يوليو/تموز سنة 1940، وهي الليلة التي أصدر فيها أدولف هتلر أمره باجتياح إنكلترا. كانت الصالة المتكهفة تعج بالجنرالات والأميرالات المزدانة صدورهم بالأوسمة، وبكبار أعضاء الحزب النازي إلى جانب زوجاتهم في أبهى الحلل وأجمل الزينة. أما المناسبة فهي أن أدولف هتلر الذي زرع العلم النازي في جزء كبير من أوروبا الغربية، سوف يلقي خطاباً وينعم بذلك النوع من التقديس والإجلال الذي كان يغدق على وثنه، ومثله الأعلى فريدريك الكبير ونابليون ويوليو/تموز سنةس قيصر.

اهتزت دار الأوبرا من هدير التصفيق فيما توجه الفوهرر إلى منصة الخطابة مختالاً فخوراً. تحدث بصوت هادئ، يكاد يشبه لهجة الواعض. قال: «أكاد أشعر بالألم وأنا أفكر بأن الأقدار قد اختارتني لتوجيه الضربة الأخيرة للصرح الذي جعله هذان الرجلان [ونستون تشرتشل والملك جورج] يترنح من جراء أعمالهما الحربية.... في هذه الساعة أرى من واجبي إرضاءً لضميري أن أناشد أصحاب العقول والمنطق السليم في بريطانيا. إني لا أرى سبباً لاستمرار هذه الحرب!».

في لندن، تجاهل ونستون تشرتشل «عرض هتلر النهائي للسلام». وأثار هذا الصمت الزعماء النازيين. وقال هتلر لقائد البحرية الألمانية، الأميرال ايريك رايدر: «إننا نواجه عدواً - مصمماً كل التصميم ولن يألو جهداً لمنع الاجتياح».

أصدر الفوهرر توجيهاته إلى المارشال هرمان غورنينغ، قائد سلاح

الطيران، بأن يدمر سلاح الجو الملكي تمهيداً للاجتياح. وتلقى غورنينغ المنتفخ تيهاً وكبرياء التوجيه ببالغ البهجة والسرور. فطيرانه وحده سوف يجعل بريطانيا العظمى تركع أمام ألمانيا، كما أكد لهتلر.

حدد غورنينغ الثالث عشر من شهر أغسطس/آب سنة 1940 وهو «عيد النسر» ليشن هجمات جوية كثيفة على إنكلترا. كان قائد سلاح الطيران وكبار مساعديه واثقين بأن سلاح الجو الملكي سيدمَّر بسرعة. ولعل الرجل الوحيد في القوات المسلحة الألمانية الذي لم يكن يشاركهم هذه الثقة هو الجنرال وولفغانغ مارتيني، رئيس سلاح الإشارة. فقد كان يشعر بالقلق.

فقبل ذلك بشهر كان مارتيني قد توجه إلى ساحل القنال في فرنسا وأقام هناك عدة محطات مراقبة إلكترونية. وكان الطيران الألماني، طيلة شهر يوليو/تموز، يقصف السفن البريطانية ويضرب الأهداف البريطانية في الداخل. كان سبب قلقه هو أن أجهزة المراقبة في فرنسا كانت تتلقى بشكل منتظم إشارات صادرة عن سلسلة من أبراج «لاسلكية» يبلغ ارتفاعها 350 قدماً على طول الساحل الجنوبي والساحل الشرقي لإنكلترا.

وبدا للجنرال أن سلاح الجو الملكي كان «يرى» الطائرات الألمانية عند إقلاعها من المطارات الواقعة خلف ساحل القنال في فرنسا وبلجيكا وهولندا، فتتجمع طائرات هاريكين وسبيتفاير البريطانية في المواقع حيث تستطيع اعتراض الطائرات الألمانية وهي تقترب من الساحل البريطاني.

أدرك مارتيني أن البريطانيين قد طوروا نوعاً من التقنية المبتكرة للدفاع الجوي - ربما الرادار- فقام على الفور بإبلاغ مشاعر القلق إلى القيادة العليا للطيران. فتمتم الضابط بعبارات استهجان. لقد كان الجنرال مارتيني مجرد مثال للاضطراب العصبي في «يوم النسر».

وسارع الميجور بيبو شميت، رئيس استخبارات سلاح الطيران إلى إلقاء الماء البارد على تحليل مارتيني المتشائم. وأرسل شميت إلى غورنينغ تقديره لنظام الدفاع الجوي البريطاني، كما رآه من على بعد ستمئة ميل من برلين.

قال شميت متشدقاً إن المقاتلات البريطانية تتلقى التعليمات بواسطة تلفونات لاسلكية من الأرض، وهي تجعل عمليات الطائرات تقتصر على السماء الواقعة فوق أبراج اللاسلكي في تلك المنطقة. واختتم تصريحاته بقوله: «إن تشكيل قوة مقاتلة قوية لسلاح الجو الملكي في نقاط حاسمة في أوقات حاسمة أمر غير محتمل، حيث أنه سيحصل اضطراب في الدفاع أثناء الهجمات الجوية الكثيفة [الألمانية]».

كانت تلك أوقات مخيفة في أعلى مستويات القوات المسلحة والحكومة البريطانية. فالذين يعلمون مجريات أمور المعركة القادمة بين المقاتلات البريطانية والطائرات الألمانية كانوا يدركون أن المخاطر التي تواجه البريطانيين كبيرة جداً، وأن الرهان يتعلق ببقاء إنكلترا.

وقد تبين، من خلال المعلومات التي كانت تلتقطها «الترا» (الرقابة الإلكترونية)، أنه سيكون لدى غورنينغ 3358 من القاذفات والمقاتلات جاهزة لتنقض على بريطانيا العظمى. كانت تلك قوة لم يسبق لها مثيل من حيث العدد والقوة المدمرة. ومقابل هذه الأرمادا الجوية الجبارة كان يوجد حوالي 700 طائرة سبيتفاير يواجه طياروها أعداداً تفوقهم بنسبة أربعة أو خمسة أضعاف.

غير أن هذه المخاطر التي تعمل ضد مصلحة البريطانيين يوجد ما يخفف منها إلى درجة ما، لأن العلماء البريطانيين كانوا قد زودوا مارشال الجو هيو دودينغ، رئيس آمرية الطائرات المقاتلة، بالمزايا الجبارة المتمثلة بجهاز «الترا» وبالرادار، اللذين لم يكن أدولف هتلر وهرمان غورنينغ يعرفان أي شيء عنهما.

كان دودينغ المتجهم الوجه وذو الطبيعة التأملية سيقوم بتوجيه ما أصبح يُعرف باسم «معركة بريطانيا» من مقر تحت الأرض يسمى «الحفرة» في مقر آمرية الطائرات المقاتلة في بنتلي برايوري، وهو قصر قديم كبير في ميدل سكس.

في فجر الثالث عشر من أغسطس/آب كان دودينغ في «الحفرة» بعد أن جاءه تحذير مسبق من خلال الرسائل التي التقطها جهاز «الترا»، والتي مفادها أن المارشال غورنينغ كان مستعداً لإطلاق سلاح الجو الألماني الجبار. وعبر القنال، وامتداداً من فرنسا وحتى النروج، صعد آلاف الطيارين الألمان إلى طائراتهم اليونكر والدورنيير والهينكل والشتوكا والمسرشميت. كانت معنوياتهم عالية حيث قيل لهم بأن سلاح الجو الملكي لن يتمكن من الصمود أكثر من بضعة أسابيع.

«رأى» دودينغ عبر الرادار الطائرات الألمانية وهي تتجه إلى أهداف في جنوب إنكلترا. وتم في «الحفرة» تحديد مواقع الطائرات الألمانية على طاولة كبيرة بُسطت عليها الخرائط، ثم تم إبلاغ المعلومات إلى غرف عمليات مختلف مقار مجموعات الطائرات المقاتلة.

كانت الرسائل التي يفك رموزها جهاز «الترا»، تواصل تزويد «الحفرة» بالمعلومات عن أهداف الطائرات الألمانية وتكتيكاتها كل يوم، مما سمح للموجهين الأرضيين بجمع أسراب المقاتلات في الأماكن والأوقات والارتفاعات الصحيحة. وقد حالت هذه التقنية دون إبعاد طائرات السبيتفاير والهريكين التي كانت الحاجة ماسة إليها لمطاردة طائرات ألمانية ثانوية أو مزيفة.

واحتدمت المعارك الدموية فوق بريطانيا والقنال طيلة أربعة أسابيع. وتلبدت السماء الزرقاء بالآثار البيضاء التي تخلفها الطائرات، وكان صمت الأيام الحارة تقطعه أصوات المحركات المجهدة وطلقات المدافع على ارتفاعات عالية.

تكبد الطرفان المتحاربان خسائر فادحة. ففي فترة أسبوعين فقط، بين 23 أغسطس/آب و6 سبتمبر/أيلول، بلغت خسائر سلاح الجو الملكي المُبلّغ عنها 466 طائرة مقاتلة و231 طياراً، في حين فقد الطيران الألماني 214 طائرة مقاتلة و138 قاذفة تم إسقاطها.

إحدى العاملات على جهاز رادار أولي ترسم مسار الطائرات الألمانية (مؤسسة سميثونيان).

ثم أخذت كفة الميزان تنقلب بشكل مطرد ضد آمرية الطائرات المقاتلة. وساد قلق شديد في الأوساط البريطانية الرسمية. فطيارو سلاح الجو الملكي كانوا منهكين تقريباً جراء المعارك الجوية بينهم وبين الطائرات الألمانية. فإذا استمر الحال على هذا المنوال بضعة أسابيع أخرى فإن بريطانيا ستتعرض للهلاك.

في برلين كان هتلر حائراً وغاضباً على غورنينغ. قال معنفاً لماذا لم يتمكن غورنينغ من تدمير سلاح الجو البريطاني خلال بضعة أسابيع، كما كان يتبجح؟ «فالعدو (سلاح الجو الملكي) يعود المرة تلو المرة.... يبدو أنهم يعرفون متى، ومن أين نأتي».

في 17 سبتمبر/أيلول تلقى ونستون تشرتشل، في مقر القيادة المحمي من القنابل تحت رصيف ستوريزغيت في لندن، رسالة التقطها جهاز «الترا». فللمرة الأولى منذ أشهر سمح البولدوغ البريطاني لابتسامة ترفيهية بأن ترتسم على وجهه. كانت الرسالة تتضمن أمراً صادراً عن هتلر من برلين: لقد ألغى أدولف هتلر عملية «أسد البحر».

لقد صمدت بريطانيا بسبب سلاحيها السريين - «الترا» والرادار - إلى جانب شجاعة طياري آمرية الطائرات المقاتلة وقدرة احتمالهم، والذين كان دودينغ المتجهم يسميهم «كتكيتي». لقد كان هؤلاء الطيارون متفردين بين أقرانهم - جسورين، أقوياء الشكيمة، شجعاناً، نخبة الطيارين. وقبل بضع سنين كانوا مسالمين ملتزمين. وكان بعضهم قد أقسم يمين أكسفورد الذي كان يدور حوله الجدل بأن لا يقاتلوا «من أجل الملك والوطن». ولكن حين كان مصير الإمبراطورية في خطر، فقد قاتلوا - وفقد المئات منهم أرواحهم في القتال.

أما مارشال الجو دودينغ المنتصر في «معركة بريطانيا» فسرعان ما تعرض لضربة مخزية. فقد كان تكتيكه المطبق في الطيران لم يعجب أحدهم في السلطة. لذا فقد قام مارشال الجو تشارلز ف. بورتال، أعلى ضابط رتبة في سلاح الجو الملكي، في 25 نوفمبر/تشرين الثاني سنة 1940، بإصدار أمر مقتضب إلى دودينغ بالتخلي عن منصبه على الفور[1].

صندوق صغير أسود مليء بالأسرار

في 30 أغسطس/آب سنة 1940 كانت قصة فائقة السرية والإثارة تتكشف في الولايات المتحدة. فالعِلم الأمريكي أصبح أخيراً يوجه اهتمامه إلى الشؤون الحربية، مدفوعاً إلى ذلك بالمناشدات البريطانية الملحة.

فقد وصل إلى واشنطن فريق من كبار العلماء البريطانيين يرأسهم هنري تيزارد، ومعهم صندوق (يسمى «صندوقنا الصغير الأسود») يعج بالأسرار الحربية. كان ونستون تشرتشل هو الذي أوعز إلى هذا الوفد ليقوم «من طرف واحد ومن دون شرط» بالكشف عن كل ما يعرفه الزوار عن العِلم في الحرب.

(1) R.V. Jones, Most Secret War (London: Collins, 1976), p. 126.
George Millar, The Bruneval Raid (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1975), p. 108.
Author correspondence with Professor Reginald Jones, Aberdeen, Scotland, April 1991.

قادة المشاريع العلمية الأمريكية في أيام الحرب. من اليسار إلى اليمين: ايرنست لورانس، آرثور كومبتون، فانفار بوش، جيمس كونانت، كارل كومبتون، الفرد لوميس. (الأرشيف الوطني).

كان تشرتشل قد طلب إلى تيزارد أن يكشف جميع أوراق بريطانيا - باستثناء «الترا». على أنه قبل مغادرة الوفد لندن كان تشرتشل قد تعرض لضغوط شديدة لإلغاء خطته بإعطاء أسرار مكنونة ومحفوظة بغاية السرية لبلد لا زال على الحياد رسمياً، حيث قد يتم التوسع في حرية التعبير لدرجة الكشف العلني عن هذه المعلومات الخطيرة.

فما تكشف عنه بعثة تيزارد سيكون من طرف واحد بالفعل، فالبحث المتعلق بالعلم والتطورات العسكرية في الولايات المتحدة كان في حكم المعدوم في العقدين السابقين. كان معظم الأمريكيين منشغلين بمشاكلهم المحلية، لذا فقد كانوا يشعرون أن بلدهم محمي بمحيطين واسعين. وعند وصول بعثة تيزارد إلى واشنطن كان حوالي سبعمائة لجنة من المواطنين في الولايات المتحدة يعارضون «انجراف أمريكا في حروب الناس الآخرين».

ومن العجيب أنه حين انتشر الخبر في واشنطن بأن تشرتشل كان

سيرسل وفداً علمياً إلى الولايات المتحدة بجميع أسراره، كان الكثيرون في إدارة روزفلت متشككين. فهل كان ذلك نوعاً من المناورة ابتدعها رئيس الوزراء الماكر لجر الولايات المتحدة التي لم تكن مستعدة علمياً وعسكرياً إلى «الحروب الأوروبية»؟

بدأ تيزارد وزملاؤه يعقدون سلسلة من الاجتماعات مع أعضاء المجلس الوطني لأبحاث الدفاع الذي كان يرأسه فانفار بوش، رئيس معهد كارنيجيي، ويضم بين أعضائه جيمس كونانت، رئيس جامعة هارڤارد الشاب، وكارل كومبتون، رئيس معهد ماساشوستس للتكنولوجيا MIT وفرانك جويت، رئيس الأكاديمية الوطنية للعلوم ورئيس مختبرات تلفون بيل.

كان الرئيس فرانكلن روزفلت قد شكل المجلس قبل مجرد شهرين، بناء على تحريض فانفار بوش الذي كان قد نال شهادتي دكتوراه في الهندسة من هارڤارد وMIT خلال سنة مكثفة قبيل انخراط أمريكا في الحرب في سنة 1917. في ذلك الوقت كان قد ذهب ليعمل لدى إحدى الشركات التي كانت تقوم بتطوير جهاز مغناطيسي للكشف عن الغواصات.

وكان فان بوش وزملاؤه قد نجحوا في إنتاج جهاز فعال وتم صنع مائة جهاز على جناح السرعة. ثم صادف العالم الممتلئ حماساً أول تجربة له في مجال الفوضى البيروقراطية: فقد كان من الممكن لهذه الأجهزة التي تكشف عن وجود الغواصات أن تنقذ كثيراً من الأرواح، لكنها لم تستخدم أبداً ضد الغواصات الألمانية.

هذه التجربة المريرة والمرعبة كانت تثير في ذهن بوش الأخطار التي ينطوي عليها انعدام الارتباط المناسب بين القوات المسلحة والحكومة والقطاع المدني في مجال تطوير الأسلحة في وقت الحرب. لذا فبعد أكثر من عقدين، حين بدأت آلة أدولف هتلر الحربية الضخمة تجتاح جزءاً كبيراً من أوروبا الغربية، استقال بوش من منصبه كنائب لرئيس MIT وانتقل إلى واشنطن دي. سي. لتولي إدارة معهد كارينجي، وليكون على مقربة من

الحكومة الفدرالية. وكان معهد كارينجي يقوم بأبحاث علمية أساسية.

بعد اجتياح الألمان لبولندا في سبتمبر/أيلول سنة 1939 جمع بوش مجموعة من كبار العلماء واتفقوا على أن الولايات المتحدة سوف تنخرط في الحرب بطريقة أو بأخرى، عاجلاً أو آجلاً. وقد أجمعوا على أن هذا الصراع الدموي سوف ينطوي على استخدام التكنولوجيا المتقدمة وأن الولايات المتحدة كانت غير مستعدة في هذا الصدد لدرجة تدعو إلى الجزع. وكان بوش وزملاؤه متأكدين بأن ما يدعو للخوف بشكل خاص هو أن بنية القوات المسلحة الأمريكية، في وصفها الراهن آنئذ، لن يكون بوسعها أبداً تطوير وإنتاج أدوات الحرب العلمية التي من شأنهم أن يكونوا بأمس الحاجة إليها.

بنتيجة المناقشة المطولة التي جرت في واشنطن، رأى بوش والآخرون أن الحاجة تدعو إلى تكوين فريق قومي لتنفيذ المهمة المطلوبة. وبالنظر لكونه كان قد تعرض للألغام السياسية في واشنطن وأصبح يعرف السبل التي يمكنه اللجوء إليها لتحقيق أغراضه، فقد تم انتخابه لقيادة المشروع. وتم الاتفاق بأن يكون للفريق سلطة مستقلة لكي لا تضيع توصياتهم واحتياجاتهم في المتاهات البيروقراطية للعاصمة.

وتم الاتفاق أيضاً على أن تكون المؤسسة مرتبطة مباشرة بالرئيس روزفلت بدلاً من أن تمر بالقنوات العسكرية، وأن يكون لها مصدرها الخاص للتمويل. كانت تلك مهمة كبيرة، لكن سرعان ما انهمك بوش فيها. واندفع في الأسابيع التالية في نشاطه في واشنطن الذي تضمن القيام بزيارات للجيش والبحرية والأكاديمية الوطنية للعلوم. وكان حريصاً على أن يسبب أقل قدر ممكن من الإزعاج عندما تصبح الخطة السرية معروفة.

وأخيراً، قام رئيس كارينجي بزيارة للشخصية الأساسية لبيع مشروعه - هاري هوبكينز، وهو ابن لمزارع من آيوا وأوثق صديق يأتمنه روزفلت على أسراره. كان طويل القامة وهزيلاً لا ينقطع عن التدخين. وكان يعمل في غرفة في البيت الأبيض تعد أكثر أماكن البيت الأبيض خصوصية وتدعى غرفة لينكولن.

رغم أن هوبكينز كان ليبرالياً ديمقراطياً وبوش محافظاً جمهورياً إلا أن شخصيتي الرجلين تآلفتا منذ الوهلة الأولى. حاول هوبكينز اقناع بوش بفكرته لإنشاء مجلس للمخترعين، لكن عندما رد رئيس كارينجي بفكرة مجلسه الأكثر شمولاً والمتعلق بالدفاع القومي، وافق هوبكينز على الفور معترفاً بأن خطة أفضل.

في 10 يونيو/ حزيران سنة 1940 تم إدخال فان بوش إلى المكتب البيضاوي في البيت الأبيض. كانت تلك أول مرة يقابل فيها فرانكلين روزفلت. وبعد تبادل بعض الكلمات العابرة سلم بوش الرئيس ورقة ورد فيها وصف لمجلس الدفاع القومي من أربع فقرات موجزة.

لم تدم المقابلة أكثر من عشر دقائق. وكان بوش يعرف أن زميله هوبكينز قد مهد له الطريق. فكتب الرئيس على ورقة «موافق - فرانكلين روزفلت». كان من شأن هذه الكلمات أن تحرك العجلات العلمية وتفتح الأبواب في كل واشنطن .

بعد مضي أحد عشر أسبوعاً على اجتماع البيت الأبيض، كان بوش، فرانك جويت، جيمس كونانت، كارل كومبتون وأعضاء آخرون من مجلس الأبحاث القومي يتناقشون باهتمام بالغ مع بعثة تيزارد. وبعد أن أخرج الزوار من «صندوقهم الصغير الأسود» المجازي سلسلة واسعة من التطورات العلمية البريطانية، تلاشت الشكوك التي كان من المحتمل أنها ساورت العلماء الأمريكيين بشأن دوافع ونستون تشرتشل.

قدم جون كوكروفت شرحاً عن المولِّد شديد القوة. فشعر حتى هؤلاء العلماء الأمريكيون بالرهبة. فهم لم يسبق لهم أن رأوا أي شيء يماثله. وكانت بعض المعروضات على شكل رسومات وأوصاف مكتوبة، ولكن معظمها كانت موجودة فعلياً. وقد تضمنت صواريخ، آلات للتنبؤ، منظرات مدفعية جيروسكوبية، أجهزة دفع نفاث، رادار والصمامات المجهرية التي جعلت الرادار المحمول جواً شيئاً ممكناً.

لعل أكثر ما استرعى الاهتمام هو المغنترون الطنان شديد القوة، وهو أنبوب مفرغ ثنائي الصمامات يتم فيه التحكم بتدفق الإلكترونات بواسطة حقل مغنطيسي خارجي لتوليد ترددات موجات صغرى.

وقد كتب عالم أمريكي لاحقاً يقول: «عندما حملت لنا بعثة تيزارد جهاز مغنترون فإنها حملت أثمن شحنة وصلت إلى شواطئنا. فهذا الجهاز كان إيذاناً بانطلاق كامل عملية تطوير رادار الموجة الصغرى [في الولايات المتحدة]».

في إحدى عطلات آخر الأسبوع كان جون كوكروفت البريطاني (نال جائزة نوبل فيما بعد) وايرنست لورانس من داكوتا الجنوبية، الذي حصل على شهادة الدكتوراه فيما كان يطوف بين المنازل ويبيع أواني المطابخ المصنوعة من الألمنيوم، كانا ضيفين في مختبر ألفرد لوميس الخاص الفخم في توكسيد بارك، وهي إحدى ضواحي نيويورك. كان يطلق على لوميس لقب آخر العلماء النبلاء - فقد كان في الواقع مليونيراً وعالماً.

وبنتيجة يومين من المناقشات في توكسيد بارك، أصبح الطريق ممهداً لإنشاء مختبر جديد لمجلس الأبحاث القومي في MIT، كمبريدج، ماساشوستس، قرب بوسطن. وعلى سبيل المحافظة على سرية العمل الذي كان يجري فيه فقد دُعي مجرد «مختبر الإشعاع».

وحين أخذت سحب الحرب من أوروبا والشرق الأقصى تتحرك باتجاه الولايات المتحدة، بدأت أبحاث الرادار بهمة ونشاط في مختبر الإشعاع. وتم خلال عدة شهور تركيب رادار متقدم على عشرين سفينة حربية أمريكية في المحيط الهادىء، حيث كان اليابانيون يتهيئون لضرب موقع لم يسمع به سوى قلة من الأمريكيين - وهو بيرل هاربور[2].

---

(2) Alan Bullock, Hitler (New York: Harper & Row, 1963), p. 304.
Robert Payne, The Life and Death of Adolf Hitler (New York: Popular Library, 1974), p. 401.

مصيدة فئران ضخمة في السماء

رغم أن هرمان غورنينغ هُزم في محاولته احراز تفوق جوي فوق إنكلترا في ربيع سنة 1940، فإنه قام على الفور بتغيير تكتيك سلاح الجو الألماني ولجأ إلى قصف لندن وغيرها من المدن الرئيسية البريطانية. فكانت 150 إلى 250 من طائرات هينكل ودونيير تقوم ليلاً باختراق الفضاء فوق إنكلترا. وبلغت الخسائر في الأرواح والدمار حداً مرعباً.

في أوائل نوفمبر/ تشرين الثاني كان ونستون تشرتشل يضع في أولوياته ضرورة إيجاد وسائل لإسقاط القاذفات الألمانية ذات اللون الأسود. فدعا إلى اجتماع في منتصف الليل في مقره الرسمي، وهو 10 داونينغ ستريت. كان بين الحاضرين فريق صغير من العلماء البحريين الذين كانوا يعملون في وكالة شبه سرية تدعى مديرية تطوير الأسلحة المتنوعة. وكان رئيسها وقائدها الروحي اللفتنانت كوماندر تشارلز غوديف وهو كندي في الثلاثينات كان فيما مضى مستشاراً علمياً مدنياً قبل الحرب.

كانت تلك المديرية المؤقتة، التي يعمل فيها ضباط احتياط بشكل رئيسي، أبعد ما تكون عن الحذر بشأن إثارة حفيظة الجنرالات والأميرالات ضيقي الفكر عندما يقف كبار الضباط في وجه العمل ويعيقونه. فلم يكن أي من العلماء مهتماً بموضوع الترقية بعد الحرب. وقد دعوا أنفسهم بالمصفرين المراوغين وكانت كلمة «المتنوعة» الواردة في اسم الوكالة تتيح لغوديف ورجاله، المتحررين من القيود، الحرية الواسعة التي كانوا بحاجة إليها لتطوير أسلحة مبتكرة غير تقليدية وفي بعض الأحيان أسلحة غريبة لإحباط أطماع أدولف هتلر.

ففي اجتماع منتصف الليل كان ونستون تشرتشل، الذي يلوح بسيجاره على سبيل تأكيد ما يقوله، يشرح مشروع أسلحة عزيز على نفسه: مصيدة

Robert Watson-Watt, Three Steps to Victory (London: Odhams, 1957), p. 297.
Vannevar Bush, Pieces of the Action (New York: Morrow, 1970), pp. 33, 36, 107.

فئران ضخمة في السماء لاصطياد قاذفات سلاح الجو الألماني. ثم أخذ يصغي بصبر نافذ فيما كان الكوماندر غوديف وعلماؤه يتجادلون بشأن الصعوبات التقنية التي ينطوي عليها المشروع.

لم يكن تشرتشل يأبه للمشاكل والصعوبات. فقد قال: «أريد ميلاً مربعاً من الأسلاك في السماء، يضارع الموكب الاستعراضي للحرس الفرسان، على أن تثبته في السماء مظلات مثل المظلات التي يهبط بها الطيارون. ومضى يقول: «تصوروا صعوبات الطائرة التي تحاول في آخر لحظة تفادي شيئاً بهذا الاتساع».

تمخضت المناقشات المتواصلة حول الطاولة عن مفهوم غامض لـ«مصيدة الفئران في الجو». فقد كانت تقتضي إطلاق كابلات سلكية في الجو بواسطة الصواريخ، على ما يبدو، ثم يتم تثبيتها بواسطة مظلات ويتم ربط ألغام شديدة الانفجار في الكابلات.

انفض الاجتماع عند الفجر. فقد طلب إلى المصفرين والمراوغين حل المشاكل التقنية وتقديم تقريرهم إلى تشرتشل بتاريخ لاحق.

أجريت تجارب مكثفة وتم تطوير جهاز دعي «سد البالونات السائبة». كان الجهاز يتضمن عدة مئات من المكونات وكان لكل مكون بالون كبير مملوء بالهيدروجين. وكان يتدلى من كل بالون حاوية معدنية وبكرة خشبية مع ألفي قدم من أسلاك البيانو، ومظلة.

كانت إجراءات تشغيل الجهاز بسيطة - نظرياً. يتم إطلاق البالونات في مساحة حوالي ميلين مربعين، وعند وصولها إلى ارتفاع معين كان ثمة آلية تحرر الألفي قدم من أسلاك البيانو الرفيعة والمتينة أسفل كل بالون. وتقوم مظلة أسفل كل سلة بتثبيته في مكانه. وبعد لحظات تصبح الحاويات المعدنية التي تحتوي على القنابل والمتدلية أسفل البالونات جاهزة للعمل.

كان يفترض، نظرياً، أنه في اللحظة التي تصطدم فيها طائرة ألمانية بسلك من الأسلاك تحدث أشياء وفق ترتيب سريع. فالتيارات الهوائية التي

تهب داخل المظلات تشد السلك وتجعل القنبلة تنزلق إلى أسفل السلك وتنفجر الطائرة المعادية عند اصطدامها بها.

وقد أجرى علماء مركز الأبحاث القومي عدداً من التجارب وعملوا بشكل محموم لتذليل العديد من الصعوبات في الجهاز. وفي 29 ديسمبر/ كانون الأول سنة 1940 صدرت الأوامر بإجراء أول اختبار كامل لسد البالونات السائبة. وقد اكتشفت «الترا» وهي الجهاز البريطاني الذي كان يلتقط ويفك رموز الرسائل اللاسلكية الألمانية، أن سلاح الجو الألماني سوف يضرب لندن في هجوم يستخدم فيه قنبلة حارقة جبارة.

فتم بذل جهود جبارة حيث قام المئات من رجال سلاح الجو الملكي والبحرية الملكية بنقل البالونات والهيدروجين والمتفجرات وغير ذلك من المكونات إلى جهة لندن التي تهب منها الريح. وتم استخدام أكثر من ثمانمائة من الشاحنات والقاطرات في المشروع. وتم تنفيذ هذه العملية اللوجستية بأكبر قدر من السرية.

كان تشارلز غوديف، رئيس مديرية تطوير الأسلحة المتنوعة، وعلماؤه، يخشون وقوع كارثة ذلك لأنهم كانوا مقتنعين أنه كان ثمة حاجة إلى المزيد من الاختبارات والتحسينات على سد البالونات السائبة. لكن الزعماء البريطانيين، من ونستون تشرتشل ونزولاً، بأمس الحاجة إلى فعل شيء ما. كانت لندن تدمر يوماً بعد يوم. وكان لابد من استخدام أية وسيلة يمكنها أن تحبط ولو بضعة طائرات ألمانية.

حين اقترب سيل الطائرات القاذفة الألمانية من لندن في حوالي منتصف الليل تم إطلاق حوالي ألفين من البالونات المحملة بالقنابل بأقل من ثلاث ساعات. ووصلت التقارير إلى مديرية تطوير الأسلحة المتنوعة تؤكد مخاوف المصفرين والمراوغين. فقد انفلتت البالونات أو تسربت وهبطت بما تحمله من متفجرات قاتلة في نقاط عديدة في جنوب إنكلترا. وسقط أحدها على الأرض المحيطة بقصر باكنغهام، حيث يقيم ملوك بريطانيا وملكاتها منذ سنة 1837، في منطقة الوست إند في لندن.

تسببت بعض البالونات ـ التي ضلت الطريق عبر القنال الإنكليزي وسقطت في فرنسا ـ بأضرارٍ كبيرة في ذلك البلد. فقد انفجرت إحدى القنابل المحمولة في البالون قرب ثكنة عسكرية. وتم إرسال بقايا ذلك الجهاز الغريب على وجه السرعة إلى ضباط المخابرات في برلين مع ملاحظة بأنه من المحتمل أن يكون البريطانيون قد طوروا سلاحاً سرياً يقصفون به المرافق العسكرية الألمانية ووحدات الجيش في القارة. وكتبت الصحف الفرنسية عن «أجسام غريبة» في السماء.

ألقت النتائج الرئيسية الأولى المتعلقة بسد البالونات السائبة بظلال قاتمة على غوديف ورجاله، رغم أن قلة منهم، إن وجدوا على الإطلاق، هم الذين كانوا يتوقعون نجاح الجهاز. غير أن التجارب تواصلت وأسفرت التجارب اللاحقة عما وصف بأنه نجاح بنسبة 80 بالمئة مع أنه لم يكن بالإمكان الجزم إن كانت أية قاذفات ألمانية قد علقت في المصيدة في السماء.

في غضون ذلك كان المصفرون والمراوغون يقومون بتطوير مخطط آخر فريد من نوعه لإحباط ملاحي سلاح الطيران الألماني: «إخفاء» القمر. كان الطيارون يستفيدون من السكك الحديدية والجسور والطرقات كنقاط توجيه. لذا فقد تم تمويه العديد من هذه العلامات. غير أن الطيارين الألمان كانوا يعتمدون على وسيلة لا تفشل من أجل تحديد الأهداف الإنكليزية: التقزح اللوني للقمر المنعكس على الأنهار والبحار والقنوات.

فكر فريق غوديف المعني بتطوير المشاريع أول الأمر باستخدام شبكات كبيرة مثبتة بفلين عائم لتغطية المساحات المائية. وتبين أن هذه التقنية تنطبق فقط على البحيرات الصغيرة والبرك. وبعد أسابيع من الجهود الحثيثة تم إعداد مزيج من هباب الفحم والوقود ليتم رشه على المساحات المائية. فمن شأن المادة اللزجة أن تلتصق على سطح الماء مما يجعل ذلك السطح معتماً غير عاكس للضوء وبذلك فإنه «يخفي القمر».

ثم جاء الاختبار. وتم اختيار نهر التيمز العتيد في لندن. وظهر ونستون تشرتشل بسيجاره الطويل فجأة ووقف قرب جسر وستمنستر ليشاهد التجربة الجديدة.

وفيما كان رئيس الوزراء يراقب باهتمام، انطلقت أربعة من اللنشات التي كانت تحمل أجهزة الرش وبدأت تضع كميات كبيرة من المادة النفطية على سطح الماء. ولم يكن نهر التيمز وحده هو الذي تمت تغطيته بالمادة السخامية، بل كان السخام يغطي الرجال الذين كانوا في اللنشات.

ثم تدخلت الطبيعة في العملية. فقد أخذت الريح تهب ونشطت حركة التيار وأخذت المادة النفطية تنحل. وتردت الأمور من سيئ إلى أسوأ. فسار تشرتشل الذي أصيب بخيبة الأمل وهو يمسح عن وجهه وملابسه ذرات الفحم بعيداً عن الجسر ثم غاب عن الأنظار.

وكان لا بد من إرسال سفينة لالتقاط الكلاب والقطط العائمة التي نفقت في النهر بعد أن شربت الماء الملوث. وأخذت ربات البيوت في أسفل مجرى النهر تشكو بمرارة بأن المادة النفطية قد تطايرت من النهر وأتلفت الغسيل المنشور على الحبال خارج منازلهن.

واصل فريق الكوماندر غوديف من ذوي العقول المبدعة تطوير العديد من المخترعات العجيبة التي ساعدت كثيراً في مجرى الحرب، لكن كان لابد من أن يعترفوا بالهزيمة في مشروع إخفاء القمر على نهر التيمز. على أنهم استطاعوا خارج كوفنتري، حيث لم تعترضهم حركات مد المحيط، تمويه قنال كان الطيارون الألمان يستخدمونه كنقطة استرشاد. لقد نفذ رجال غوديف المشروع بشكل متقن لدرجة أن رجلاً مسناً وكلبه اللذين خرجا في نزهة مسائية سقطا في القنال ظناً منهما أنه طريق جديد[3].

---

(3) Gerald Pawle, The Secret War (New York: Sloane, 1957), pp. 102-105. Author's archives.

الأمريكيون يحلون الشيفرة الأرجوانية

في خريف سنة 1940 كان الشعب الأمريكي لا يزال منشغلاً بحياته اليومية السلمية في وطنه، كما كان عليه حالهم في العشرينات والثلاثينات. فصحيح أنه كان يوجد رجل مجنون اسمه هتلر قد اجتاح معظم أوروبا ويهدد بالمزيد من الاجتياحات، وأن الجيش الياباني كان يعامل الصين القديمة معاملة وحشية. لكن كان هناك محيطان واسعان يحميان الولايات المتحدة من هذه الأمور القبيحة. لذا لم القلق؟ كان شعار أمريكا: «الابتعاد عن صراعات الآخرين!».

وبنتيجة هذا الموقف فقد تركت دفاعات الولايات المتحدة لتنزلق إلى مركز قوة من الدرجة الثالثة. كانت أمريكا الدولة الرئيسية الوحيدة التي لم يكن لديها جهاز استخبارات عالمي. فالجهود المخلصة لجماعة أصلية من الضباط العسكريين المهنيين وفريق صغير من العلماء، هؤلاء وحدهم هم الذين يحفظون الولايات المتحدة من احتمال الاجتياح بواسطة آلات حربية يبدو أنها منيعة لا تقهر.

كان فريق يشرف عليه ويليام فريدمان ويرأسه معلم مدرسة سابق، فرانك روليت، أول من اكتشف أن اليابانيين كانوا يستخدمون شيفرة دبلوماسية سموها «الأرجوان» وذلك في 20 مارس/آذار سنة 1939. ومنذ ذلك الوقت أخذ هؤلاء المحللين للشيفرات يعملون بجهد كبير لحل الشيفرة. لكن جهودهم ذهبت أدراج الرياح.

ولد فريدمان، لأب يهودي روسي في سنة 1891، ثم جاء إلى الولايات المتحدة مع أسرته بعد سنة، وسكنت الأسرة في منطقة بيتسبورغ، حيث كان الأب يبيع آلات خياطة سينجر متنقلاً من باب لآخر. أما الابن فقد كان خارق الذكاء وتخرج من جامعة كورنيل سنة 1914.

بعد دخول الولايات المتحدة الحرب العظمى في سنة 1917، أخذ فريدمان الذي كان له اهتمام قديم بعلم التشفير، يعمل لدى الجيش. كان

هدفه الأول فك شيفرة مجموعة من الهندوس الذين كانوا يناضلون في الولايات المتحدة من أجل استقلال الهند. وقد تمكن فريدمان من فك الشيفرة بسهولة وحدثت اعتقالات ومحاكمات جماعية لأعضاء الجماعة لمحاولتهم شراء أسلحة نارية بطريقة غير قانونية.

في غضون ذلك كان فريدمان قد تزوج اليزابيت (كذا) سميث، وفي يناير/كانون الثاني سنة 1921 أصبح الاثنان يعملان في مجال الشيفرات فيما كان يدعى الغرفة السوداء التابعة لوزارة الحربية (وهي رسمياً قسم حل الشيفرات والرموز). وكانت مهمته وضع أنظمة تشفير، كما ألف كتاباً مرجعياً عن المهنة عنوانه Elements of Cryptanalysis (مبادئ تحليل الرموز).

في سنة 1930 تم تعيين فريدمان رئيساً لاستخبارات إشارات الجيش، التي كان يدعمها كونغرس مقتر بأموال زهيدة. وكان يعمل معه على فك الشيفرات من جميع أنحاء العالم ثلاثة من محللي الرموز واثنان من الكتبة.

وفي الثلاثينات حين كانت ألمانيا النازية واليابان الإمبراطورية تبنيان آلتين حربيتين عملاقتين، كان من المفترض أن قسم استخبارات الإشارة وقسم الشيفرة والإشارة البحري يتعاونان على فك شيفرات القوى الأجنبية. غير أن هذين القسمين لم يكونا على اتصال فيما بينهما.

فقد كان محللوا الشيفرات في الجيش والبحرية يعملون على نفس الشيفرات بمعزل عن بعضهما البعض بغية محاولة إحراز قصب السبق في حال التوصل إلى حل الشيفرات.

وفي سنة 1939، حقق قسم استخبارات الإشارة التابع للجيش نصراً كبيراً: فقد تمكن من حل الشيفرة الحمراء وهي الاسم الرمزي للشيفرة الدبلوماسية اليابانية. وبعد بضعة شهور، ولأول مرة في تاريخ الولايات المتحدة، تم تعميم شيفرات الاستخبارات الأجنبية التي تم حلها على البيت الأبيض وعلى الفروع العليا في الحكومة والجيش - وهو ما كانت تقوم به الأمم الأخرى منذ قرون.

obeikandi.com

كان المارد النائم، وهو الاسم الذي كان يطلق على أمريكا، يدخل القرن العشرين وهو على الهامش فيما يتصل باستخبارات الشيفرات، وكان الرئيس روزفلت يبدي اهتماماً ضئيلاً في النصوص المشفرة الحمراء، مع أنها كثيراً ما كانت تنطوي على أنباء مذهلة.

فقد أظهرت الشيفرة الحمراء أنه تم تطوير آلة يابانية جديدة، الأرجوان، وأنها ستحل محل النظام الأحمر.

وبعد ظهر العشرين من سبتمبر/أيلول سنة 1940، قفز فرانك روليت، الذي ترأس عملية الانكباب على حل شيفرة «الأرجوان» لمدة ثمانية عشر شهراً، قفز عن مقعده وهتف قائلاً: «ها هي ذي!».

وصرخ مساعده الرئيسي، روبرت فيرنر، المعروف عنه التحفظ والرزانة، مبتهجاً. وكان أحد محللي الرموز الشبان، البرت سمول، يركض حول الغرفة وقد اختنق صوته ورفع ذراعيه فوق رأسه، كما يفعل الملاكم المنتصر في حلبة الملاكمة.

لقد كان «كسر» شيفرة الأرجوان أعظم نجاح في تاريخ الولايات المتحدة، وكانت تلك مناسبة تدعو إلى الاحتفال. لذا فقد أرسل الرجال الأربعة يطلبون زجاجات كوكا-كولا وشربوها، ثم استأنفوا العمل بهدوء.

ومنذ ذلك الحين أصبح الميجور جنرال جوزيف موبورني، كبير ضباط سلاح الإشارة يسمي محللي الرموز «سَحَرَة». وقد التصق بهم هذا الاسم وأصبحت المعلومات الاستخبارية التي يتم الحصول عليها من الشيفرات اليابانية المحلولة يرمز إليها باسم «السحر». (ويطلق هذا الاسم أحياناً بشكل عام على الاستخبارات من الدرجة الرفيعة).

كان من بين الذين افتتنوا بكسر «الأرجوان» وزير الحربية هنري ستيمسون، الذي يعتبر الكثيرون أنه واحد من بين أصحاب الذكاء الخارق في العاصمة الأمريكية. ولم يكن ستيمسون بالغريب عن الصراع المسلح. ففي أثناء الحرب العظمى، شهد المعارك حين كان كولونيلاً يقود فرقة مدفعية في فرنسا.

وبعد أن شغل ستيمسون منصب حاكم عام في الفليبين سنة 1929، عينه الرئيس هربت هوفر وزيراً للخارجية. في ذلك الوقت كان ستيمسون يشعر بوجود الكثير من «النوايا الحسنة الدولية» وبالتالي لم يجد داعياً لأن يكون للولايات المتحدة جهاز يعمل في حقل كسر الشيفرات. لذا فقد أمر بإغلاق «الغرفة السوداء» التي كانت تقوم بفك شيفرات الرسائل الأجنبية منذ الحرب العظمى.

وقد أوضح ستيمسون موقفه بالقول: «أن الشرفاء لا يقرأون بريد الشرفاء الآخرين»، وهو قول ينم عن سذاجة لا تصدق بالنسبة لرجل ذي خبرة عالمية.

أما الآن، بعد إحدى عشرة سنة، فقد تغير رأيه بشأن فك الشيفرات. وأصبح من الواضح أنه بوجود أدولف هتلر وبينيتو موسوليني وأمراء الحرب اليابانيين الذين كانوا يسلبون العالم بقواتهم المسلحة الجبارة، فقد أصبحت الحاجة ماسة لقراءة «بريد الشرفاء الآخرين».

كتب ستيمسون في يومياته مشيداً بمنجزات عباقرة أمريكا الذين يفكون الشيفرات، يقول: «لا أستطيع، حتى في يومياتي، أن أخوض ببعض الأشياء الخارقة التي يقومون بها».

بعد أن تم كسر الشيفرة «الأرجوان» وقراءة أسرار طوكيو الحميمة بدأ قسم استخبارات الإشارة وقسم OP-20- G (الذي كان فيما مضى قسم الشيفرة والإشارة البحرية) العمل الشاق في اعتراض وفك السيل الذي لا ينقطع من الرسائل الدبلوماسية اليابانية.

وفي الوقت الذي كان العالم يشتعل، رفعت المنافسة بين أقسام الاستخبارات رأسها القبيح. فكان كل من استخبارات الجيش واستخبارات البحرية يخشى كل منهما أن يتفوق عليه القسم الآخر. لذا بعد مناقشات مستفيضة بين الفرعين، تم اعتماد صيغة عجيبة: يتلقى الجيش جميع المراسلات الدبلوماسية في الأيام ذات التاريخ المزدوج، وتقوم البحرية بالتعامل مع الإشارات في الأيام ذات التواريخ المفردة.

وقد جاء في أحد التقارير أن «الغاية من هذا الترتيب إعطاء القسمين فرصاً متساوية للتدريب والتقدير وما أشبه ذلك». وقد نجم عن هذا النظام الغريب وغير العملي أخطاء كثيرة في التأكد من النوايا الحربية لليابان في المحيط الهادئ في غضون سنة واحدة.

وفي أغسطس/آب سنة 1940 اقترح البريغادير جنرال جورج سترونغ، رئيس البعثة العسكرية الأمريكية التي كانت ستجتمع قريباً مع رؤساء الأركان البريطانيين لمناقشة المساعدة العسكرية المتبادلة، اقترح على وزير الحربية ستيمسون أن تنخرط الولايات المتحدة وبريطانيا في «تبادل حر للمعلومات الاستخباراتية»، الذي يتضمن جميع الرسائل التي تحل رموزها وأساليب كسر الشيفرات.

ورأى ستيمسون، الذي أصبح مؤيداً متحمساً في مجال تحليل الرموز، أن فكرة الجنرال سترونغ رائعة، غير أن البحرية كانت تعارض بشدة. فاجتمع ستيمسون مع وزير البحرية فرانك نوكس، وهو صاحب صحيفة يومية في شيكاغو سابقاً، وأقنعه بخطة التعاون مع البريطانيين في مجال تحليل الرموز.

وأخبر ستيمسون نوكس بأن البريطانيين مستعدون للمشاركة، لكن تبين أنه مفرط في التفاؤل. ففي حين أن الأمريكيين اقترحوا تضمين جميع المعلومات التي يتم تلقيها عن طريق «السحر»، فإن البريطانيين لم يشاءوا حتى مجرد الكشف عن وجود «الترا».

وهكذا فقد تهرب رؤساء الأركان البريطانيون من توصية سترونغ التي لقيت تأييداً قوياً من جانب الرئيس روزفلت. ومما لاشك فيه أن ونستون تشرتشل هو الذي أتخذ ذلك القرار. فقد كان يخشى، وهو محق إلى حد كبير في ذلك، بأن السر العسكري، الأشد كتماناً في تاريخ الإمبراطورية البريطانية، قد لا يكون في أمان في الولايات المتحدة.

قال أحد ضباط الأمن البريطانيين «إن في واشنطن تسريباً مثل تسريب المنخل!».

وقد تعمقت مخاوف البريطانيين بشأن «التسريب» في الولايات المتحدة حين تم اكتشاف اختراقاتٍ أمنيةٍ فاضحةٍ من قبل الميجور جنرال إدوين «با» واطسون، وهو صديق قديم لروزفلت الذي كان يشغل منصب المساعد العسكري للرئيس.

فقد كان من مهام واطسون تزويد روزفلت بالرسائل التي يتم حل رموزها من قبل «السحرة». وفي أحد الأيام شعر ضباط الأمن بجزع شديد حين اكتشفوا أن خلاصة بالغة السرية كانت مفقودة. وبعد عملية تفتيش شاملة ومحمومة في البيت الأبيض وجدت الوثيقة في سلة مهملات با واطسون(4).

الشاحنة الغامضة القادمة من المريخ

في أواخر سبتمبر/ أيلول سنة 1940 قام كاسروا الشيفرات في بليتشلي بارك، في شمال لندن، بفك رموز رسالة تبعث القشعريرة في النفوس وأسرعوا بها إلى رئيس الوزراء ونستون تشرتشل.

فقد جاء في الرسالة أن بينيتو موسوليني ديكتاتور إيطاليا، ذا الخطب الرنانة الذي كان قد أعلن الحرب على بريطانيا العظمى قبل ذلك بثلاثة شهور، قد جمع جيشاً قوامه ثلاثمئة ألف جندي في ليبيا، في شمال أفريقيا، وأنه يستعد للقيام بهجوم ساحق.

كانت القوات الإيطالية، بقيادة المارشال رودولفو غرازياني، تستهدف

---

(4) David Dilks, ed., The Missing Dimension (London: Macmillan, 1984), p. 52.
"Pearl Harbor and the Inadequacy of Cryptanalysis," Cryptologia, vol. 15,1991.
Edwin T. Layton, And I Was There (New York: Morrow, 1987), p. 81.
Henry L. Stimson Diary, September 25, 1940. New Haven, Conn.: Yale University Library.
"Historical Background of the Signal Security Agency" (Washington, D.C.: U.S. Government Printing Office, 1956), part 3, p. 308.
Bradley F. Smith, The Ultra-Magic Deals (Novato, Calif.: Presidio, 1993), pp. 43-44.
Joint Committee on the Investigation of the Pearl Harbor Attack, part 11, p. 5475. National Archives, Washington, D.C.

obeikandi.com

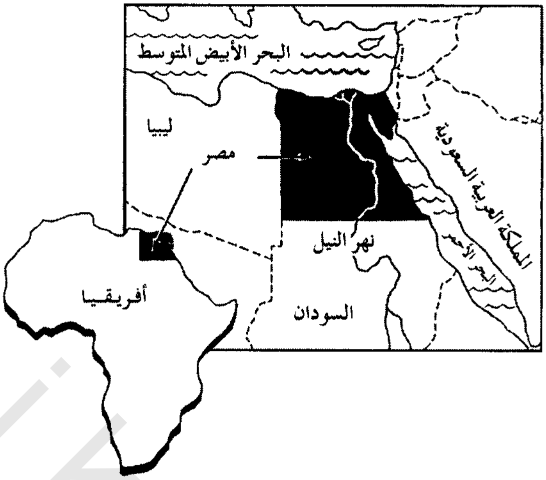

خارطة مواقع مصر/ ليبيا

القاعدة البحرية البريطانية في الإسكندرية، والعاصمة القاهرة، وقناة السويس، التي تقع على بعد أربعمئة ميل إلى الشرق. وكان سيواجه غرازياني ستة وثلاثون ألفاً من الجنود البريطانيين غير المدربين، والذين ليس لديهم معدات كافية والموزعون في أنحاء مصر ويطلق عليهم غروراً اسم جيش النيل.

كانت السيطرة على البحر الأبيض المتوسط ـ الذي يمتد لمسافة ثلاثة آلاف ميل ومدخله في جبل طارق ـ أمراً حيوياً وحاسماً بالنسبة لبريطانيا العظمى، لأن «خط حياة» الإمبراطورية كان يمتد عبر تلك المساحة الواسعة من الماء، ويمثل الطريق القصير من إنكلترا حتى ممتلكاتها في النهايات الشرقية للبحر.

عندما تلقى تشرتشل الرسالة التي تم فك رموزها كانت «معركة بريطانيا» لا تزال دائرة، وكان العالم برمته يعتقد أن رئيس الوزراء سيكون بحاجة إلى كل جندي في جيش الوطن. إلا أنه بفضل «الترا»، إطلع تشرتشل على أحد أسرار الألمان. فقد ألغى هتلر عملية «أسد البحر» (غزو إنكلترا). لذا فقد أبحرت فرقتان من الجيش البريطاني بدباباتها إلى شمال أفريقيا لدعم جيش النيل.

obeikandl.com

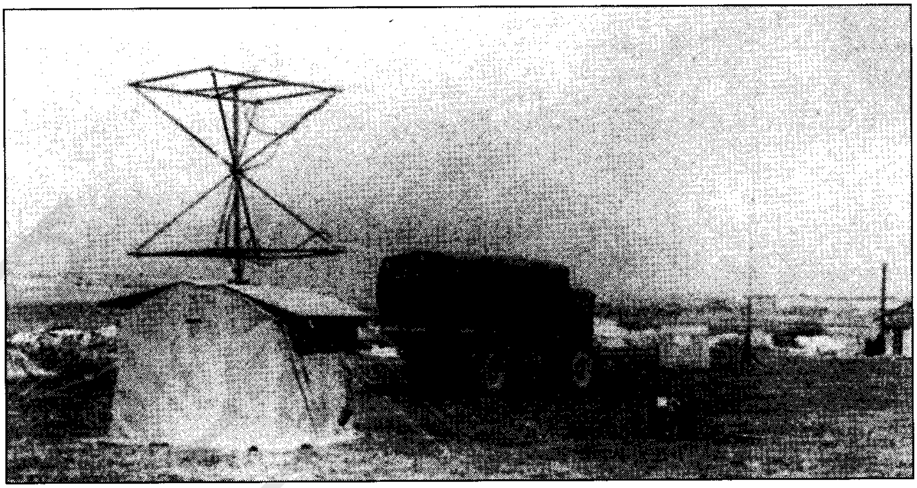

لعبت «شاحنات غريبة من المريخ» ـ مثل هذه الشاحنات في مقر قيادة المعارك البريطانية ـ دوراً رئيسياً في نتيجة الحرب. (مجموعة المؤلف).

حال وصول الجنود الجدد إلى مصر بمنتهى السرية، بدأ ارتشيبالد ويغل، وهو واحد من أكبر الجنرالات منزلة وقائد الجيش في الشرق الأوسط، بدأ يسرب الجنود غرباً في الليل ليتمركزوا مقابل قوة الجنرال غرازياني. ومع أن عدد الجنود الإيطاليين كان يفوق عدد الجنود البريطانيين بنسبة ثمانية أضعاف في المعركة الوشيكة، إلا أن اللفتنانت جنرال ريتشارد اوكوفر، قائد ما كان يسمى قوة الصحراء الغربية كان يتمتع بميزة كبيرة تتمثل في «الترا».

بالنظر للمرونة البالغة في قتال الصحراء - فقد كانت الجبهة تمثل بخط واحد على الخرائط العسكرية - والتواجد في كل مكان للمتنصتين الاستخباراتيين الألمان والإيطاليين فقد قرر ونستون تشرتشل وضباط مخابراته، بأن لا يسمح لأي من الجنرالات في الخطوط الأمامية برؤية أو امتلاك أو مجرد العلم بوجود «الترا».

وفي مقر قيادة الشرق الأوسط في القاهرة لم يسمح إلا للجنرال ويغل ورئيس استخباراته، البريغادير فرانسيس «فريدي» دى غوينغاند بقراءة الرسائل

التي تم فك رموزها بواسطة «الترا». فهذان الضابطان كانا يتلقيان معلوماتهما من بليتشلي بارك عبر وحدة ارتباط خاصة تم تشكيلها حديثاً.

كانت هذه الكتيبة السرية تتكون من ضابط من سلاح الجو الملكي الموثوق بحصافتهم ومن فنيين لاسلكيين وخبراء في الرموز من فيلق الإشارة الملكي. وكانت مهمتهم تنطوي على إرسال سيل متواصل من التفاصيل عن تركيبة قيادة العدو والخطط التكتيكية وقوة الوحدات المقابلة ومكانها ومعنوياتها، حتى مستويات الكتائب والسرايا. وقد كانوا مغلقي الأفواه ومترفعين، وكأنهم يريدون تفادي الحديث.

كان العاملون في وحدة الارتباط الخاصة وشاحنتهم ذات المنظر العجيب، والهوائي الذي يبلغ طوله ستة وعشرين قدماً والمنبعث باتجاه السماء محاطين بستار كثيف من السرية وموضعاً للاهتمام والرجم بالغيب وكانت الشاحنة دائماً خارج مقر الجنرال ويغر تماماً.

سأل أحد الجنود البريطانيين ضابطاً من وحدة الارتباط الخاصة. «قل لي ما هذه الشاحنة ذات المظهر العجيب وماذا تفعلون كلكم هنا؟»

أجاب الضابط قائلاً: «ألم تسمع آخر الأخبار؟ إن هذه الشاحنة الملعونة قد أُرسلت من المريخ. إنها سلاح تشرتشل السري. ألا تعرف ذلك؟».

ولقد كان من الممكن أن يكون هؤلاء الدخلاء المذهولون أكثر دهشة وحيرة لو علموا بالاسم الرمزي لقاعدة الوحدة في إنكلترا المسماة «المحطة اكس» – مركز «الترا» في بليتشلي بارك. كانت الشاحنة على اتصال دائم مع المحطة اكس.

كان ضباط سلاح الجو الملكي، الذين أقسموا اليمين تحت طائلة حكم بالسجن طويل الأمد في حال ارتكاب مخالفة أمنية، كانوا يطلعون على كل رسالة تأتي من المحطة اكس. وكانت كل رسالة مشفرة تحمل رمزاً ابتداءً من حرف Z إلى ZZZZZ. حسب درجة الأهمية، كلما ازداد عدد حروف Z كلما كان الموضوع أكثر أهمية.

بعد وصول كل رسالة، كان أحد الضباط يلتقط الرسالة المفكوكة رموزها بإحدى يديه وينسل خارجاً من الشاحنة. كان يرفع أحد نعليه ثم يكرر العملية بالنعل الثاني للتأكد من أن قطعاً صغيرة من مواد «الترا» لم تلتصق بنعليه. فهذه القصاصات قد تقع من نعليه وتقع بين أيدي أشخاص غير مخولين.

وعند وصول الضابط إلى مكتب الجنرال ويغل كان يدخل ويسلمه الرسالة التي تم حل شيفرتها. وكان الضابط يقف صامتاً فيما كان ويفل يقرأ الرسالة ثم يعيدها إلى الضابط.

لم يكن يسمح لأي من كبار الضباط بالاحتفاظ بنسخ من إشارات وحدة الارتباط الخاصة. فكان الضابط، حسب الإجراءات المقررة، يعود إلى شاحنته ومعه الرسالة السرية ثم يقوم بحرقها. كما أنه لم يكن يسمح للجنرالات أو لكبار مساعديهم بكتابة ملاحظات، قد تضل الطريق جراء عدم الحذر وتصل إلى أيدٍ معادية.

وإذا كانت محتويات الرسالة الواردة من «الترا» ذات أهمية بالنسبة لخطط الجنرال أوكونور القتالية أو إذا جاءت أثناء القتال الفعلي، كان ويفل يطلعه على الاستخبارات «الساخنة» في رسالة يتم إرسالها بواسطة أحد السعاة. فالرسالة لا تكشف عن مصدرها لكن كان يتم إبلاغ أوكونور في مذكرة مستقلة بإتلاف الرسالة الأخرى بحرقها بعد قراءتها.

وفي بعض الأحيان كان البريغادير غوينغاند يأتي بنفسه ويسلم أوكونور المعلومات الاستخبارية الواردة من «الترا»، دون الكشف عن المصدر أيضاً. كانت تلك الإجراءات الوحيدة المتاحة في ذلك الوقت، لكنها كانت تنطوي على خطر رفض أوكونور للمعلومات الواردة من المصدر المجهول (إليه)، اعتقاداً منه بأن استخباراته المحلية الخاصة أدق وأحدث.

في 9 ديسمبر/كانون الأول سنة 1940 ضرب الجنرال أوكنور ضربته. فقد كان يتمتع بالميزة الضخمة المتمثلة بمعرفته بمواقع قوات الجنرال

غارزياني ومواقع قواته المساندة، مثل المدفعية. وقد أُخِذ الإيطاليون على حين غرة، وكانت معنوياتهم متدنية فسرعان ما لاذوا بالفرار غرباً في حالة من الفوضى. وهكذا فقد تقدم جرذ الصحراء، كما كان المقاتلون البريطانيون يسمون أنفسهم بفخر، 650 ميلاً غرباً إلى ليبيا.

وبحلول السابع من فبراير/شباط سنة 1940، كانت قوة الصحراء الغربية قد أخذت 130000 أسيراً ودمرت أو غنمت 400 دبابة و1290 مدفعاً. وبلغت خسائر البريطانيين 506 من القتلى و1400 من الجرحى. لقد كان نصراً عظيماً لأوكنور وجنوده - وللشاحنة السرية القادمة من المريخ، التي أبقته على معرفة خطط غرازياني مسبقاً[5].

قرار تشرتشل المؤلم

قبل منتصف الليل بقليل من الخامس من نوفمبر/تشرين الثاني سنة 1940 أقلعت 100 قاذفة قنابل «من مجموعة القتال 100» من قاعدتها قرب فانس في فرنسا واتجهت غرباً فوق الأمواج المظلمة للقنال الإنكليزي متجهة إلى مدينة برمنغهام الصناعية الكبيرة. وكانت تلك الطائرات الثقيلة المطلية باللون الأسود مزودة بمعدات ملاحية متقدمة تسمى «جهاز اكس». كانت هذه الأجهزة التي طورها العلماء الألمان تستطيع توجيه القاذفات إلى أهدافها ليلاً وفي الجو الغائم. وكانت تلك المعدات على درجة من التعقيد بحيث أن مئة فقط من نخبة الطيارين من «مجموعة القتال 100» هم الذين دُربوا على استخدامها.

وقد عمل «جهاز اكس» كما كان يتوقع منه وأوصل القاذفات الألمانية مباشرة إلى برمنغهام التي تعرضت لقصف شديد. ثم في طريق العودة سقطت طائرة هينكل على الشاطئ في جنوب إنكلترا وتم إنقاذ «جهاز اكس» من

(5) John Smyth, Leadership in War (New York: St. Martin's Press, 1947), p. 63.
Author's archives.
David Irving, The Trail of the FOX (New York: Dutton, 1977), p. 207.

حطام الطائرة. وتم إرساله على وجه السرعة إلى مؤسسة أبحاث الاتصالات السلكية واللاسلكية قرب سوانييج.

وبعد أقل من ساعة من وصول الجهاز السري انكب على دراسته ريجينالد جونز وروبرت كوكبورن وغيرهما من العلماء الذين كانوا منخرطين مع نظرائهم الألمان في حرب من التدابير والتدابير المضادة والحركات الدفاعية والهجومية. ولم يكن أي من الخصمين العلميين يغفل لحظة عن حيطته. فقانون التحدي والاستجابة الأبدي كان ثابتاً تقريباً.

كان جونز وآخرون على علم من أحاديث أسرى الحرب الألمان في شهر مارس/آذار السابق أن سلاح الجو الألماني كان يقوم بتطوير «الجهاز اكس». وتبين لهم الآن أنه يتكون من شعاع لاسلكي أساسي يوجه إلى هدف كبير وثلاثة أشعة متقاطعة. كان الشعاع الرئيسي (الذي أطلق عليه الألمان اسماً رمزياً «ويزر» يصدر من شيربورغ على ساحل القنال الفرنسي، والأشعة الثلاثة المتقاطعة (أودر، البه، والراين) كانت ترسل من كاليه، مقابل دوفر). استناداً إلى النتائج التي توصل إليها العلماء، أرسل فريدريك ليندمان، الذي كان يشعر بالجزع، مذكرة إلى رئيس الوزراء تشرتشل بشأن قدرات «الجهاز اكس» قائلاً: «أن من المتوقع أن تكون دقة القصف بحدود عشرين ياردة».

بينما كان ونستون تشرتشل يفكر بالتدابير المضادة المقترحة لمواجهة أخطار «الجهاز اكس»، بما في ذلك إرسال قوة كوماندوس إلى قاعدة «مجموعة القتال 100» في فانس، التقطت «الترا» إشارات كشفت أن الطيران الألماني سيقوم بهجوم ضخم (عملية سوناتا ضوء القمر) لكي يمحو من الخارطة ثلاث مدن بريطانية أطلقت عليها أسماء رمزية آينهايتبرايس، ريغينشيرم وكورن. وسيتم الهجوم في 14- 15 نوفمبر/تشرين الثاني وسيتواصل في ليال متعاقبة. ولكن ما هي تلك المدن التي أطلقت عليها الأسماء الرمزية؟

كانت عملية «سوناتا ضوء القمر» تنطوي على عامل انتقامي. ففي ليلة الثامن من نوفمبر/تشرين الثاني، عندما كان أدولف هتلر يخطب أمام الحرس

النازي القديم في لوينبراكيلر في ميونيخ، احتفالاً بالذكرى السنوية السابعة عشرة لأول محاولة قام بها الفوهرر للثورة، قام سلاح الجو الملكي بغارة وأسقط عدة قنابل على المدينة...

ومع أن هتلر تحدث إلى مؤيديه المتطرفين قبل تسعين دقيقة من الموعد المقرر وأنه كان قد غادر القاعة حين انفجرت القنابل البريطانية، إلا أنه شعر بغضب شديد. فقد كان لميونيخ منزلة خاصة بالنسبة لهتلر لأنها كانت مهد النازية.

وأصدر عبقري الدعاية الألمانية جوزيف غوبلز بلاغاً عن الغارة ادعى فيه أن ونستون تشرتشل قد تعمد استهداف النساء والأطفال لإغاظة الفوهرر. واختتم البلاغ قائلاً: «سوف يكون الرد الانتقامي بالغ العنف ضد إنكلترا».

ذلك الرد الانتقامي هو «عملية سوناتا ضوء القمر».

بعد تلقي المعلومات التي حلت «الترا» رموزها، جرى نشاط محموم بين العلماء البريطانيين وغيرهم في محاولة تحديد المدن التي سوف تتعرض للهجوم. كانت السرعة عنصراً أساسياً: فالضربة الشديدة ستنفذ بعد خمسة أيام فقط. كان ريجينالد جونز يرى أن المدن المستهدفة ستكون كوفنتري ووولفرهامبتون وبرمنغهام. وخرجت مختلف أنواع التخمينات من وزارة الطيران.

وفجأة ضحك الحظ للبريطانيين. فمما لا شك فيه أن أحد مشغلي جهاز «اينيغما» الذي كان يبث الأوامر من مقر قيادة سلاح الجو الألماني أورد سهواً مدينة كوفنتري بدلاً من الاسم الرمزي. وكشفت «الترا» أيضاً أن «مجموعة القتال 100» الشهيرة المجهزة بالجهاز اكس، سوف تحلق فوق كوفنتري على طول شعاع لاسلكي، وأنها سوف تسقط قنابل حارقة لتشعل حرائق من شأنها أن تكون منارات لإرشاد القاذفات الرئيسية.

عندما وصلت الرسائل التي حلت رموزها إلى ونستون تشرتشل في مخبئه الحربي في لندن، وجد نفسه يواجه قراراً مؤلماً: يجب إعطاء الأولوية

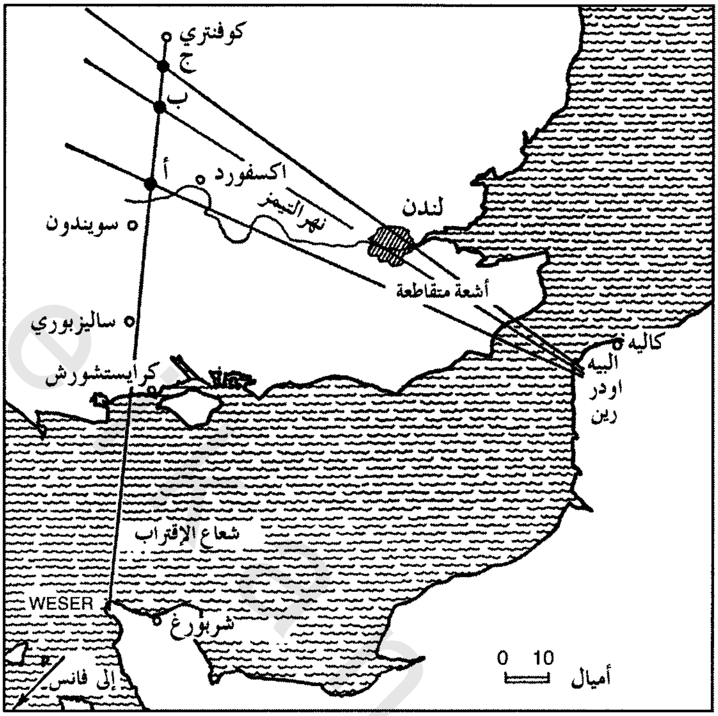

أشعة «جيرات» الألمانية تستهدف كوفنتري (بموافقة البروفيسور آر. في. جونز)

لأمن «الترا». فاستناداً إلى أية إجراءات إضافية يتم اتخاذها للدفاع عن كوفنتري التي يبلغ عدد سكانها ربع مليون نسمة، والتي تقع على بعد تسعين ميلاً إلى الشمال الغربي من لندن، فقد تستنتج المخابرات الألمانية الماكرة أن البريطانيين قد تلقوا تحذيراً مسبقاً عن الغارة، ربما من خلال تحليل الشيفرات. وذلك الشك القوي قد يجعل أدولف هتلر يستنتج أن «اينيغما» قد تم اختراقها من قبل البريطانيين مما يجعله يتحول إلى نظام اتصالات آخر.

هل كان أمن «الترا» أهم من سلامة مدينة بريطانية كبيرة؟ ففي حين أن الدفاعات ضد القصف الليلي فيها كانت بدائية، فقد كان يوجد عدة تدابير كان يمكن لتشرتشل اتخاذها لتقليل الدمار الكبير الذي سيحصل والأرواح التي ستزهق.

عبر «الترا» استطاع البريطانيون الحصول على تفاصيل استخباراتية دقيقة بشأن موقع وقوة أسراب الطائرات الألمانية في أوروبا الغربية. لذا فإن رئيس الوزراء يستطيع إعطاء الضوء الأخضر لسلاح الجو الملكي بشن «عملية الدش البارد». وكانت تلك الخطة تنطوي على إحباط الغارة على كوفنتري قبل أن تبدأ، وذلك من خلال إطلاق جميع الطائرات المقاتلة لمهاجمة القاذفات الألمانية عندما تكون أكثر عرضة للأذى - أي وهي محملة بالقنابل والوقود وهي متجمعة في مطاراتها.

كان بالإمكان إرسال مدافع مضادة للطائرات - كان يوجد أربعمئة منها في إنكلترا - فضلاً عن دفاعات غطاء الدخان والأنوار الكاشفة على وجه السرعة إلى كوفنتري. وقد يؤدي جمع المدافع المهلكة المضادة للطائرات والأنوار الكاشفة إلى تشتيت القاذفات الألمانية وجعلها تتخلى عن أهدافها. وكان بالإمكان إرسال وحدات مكافحة النيران وسيارات الإسعاف من حول جنوب إنكلترا إلى كوفنتري.

هل كان بالإمكان إعطاء تحذير سري للمسؤولين في مدينة كوفنتري بأن سلاح الجو الألماني ينوي ضرب كوفنتري؟ ألم يكن من الواجب إخلاء المسنين والأطفال والمرضى من المستشفيات؟

كان تشرتشل مكروباً وهو يقلب الرأي بشأن هذه الخيارات. فقلة من الزعماء، إن وجدوا على الاطلاق، في التاريخ اضطروا إلى اتخاذ هذا القرار المؤلم. وأخيراً أجاب رئيس الوزراء بالنفي بشأن جميع تلك المقترحات. لا يجوز تنبيه الاستخبارات الألمانية بأن البريطانيين كان لديهم علم مسبق بعملية «سوناتا ضوء القمر». كان قراراً مأساوياً، لكنه كان الطريقة الوحيدة لحماية سر «الترا» خلال الحرب الطويلة والدموية قبل إركاع أدولف هتلر.

بعد الغسق بقليل في الرابع عشر من نوفمبر/تشرين الثاني انطلق تشرتشل مع سكرتيره لقضاء الليل بعيداً عن 10 داونينغ ستريت في بيت منعزل خارج لندن. وقد أصر ضباط الاستخبارات البريطانيون أن بيت رئيس الوزراء الريفي، تشكرز، يكون خلال فترة الليالي المقمرة هدفاً ظاهراً ومغرياً.

وفي الوقت الذي كانت سيارة تشرتشل المثقل بالهموم تسير في شوارع لندن، كانت أسراب القاذفات الألمانية تقلع من مطارات في فرنسا وبلجيكا وهولندا. وبعد ساعة كانت ألسنة النيران تتصاعد في السماء السوداء فوق كوفنتري بعد أن زارتها جماعة القتال 100، التي تبعت طائراتها شعاع «الجهاز اكس» إلى الهدف. وقد كانت النيران عبارة عن منارة تُرى من على بعد خمسين ميلاً من قبل ملاحي الطائرات الألمانية المتوجهة إلى كوفنتري التي أسقط فوقها مئة وخمسون ألف قنبلة محرقة وألف وأربعمئة قنبلة شديدة الانفجار.

وهكذا فقد دمرت كوفنتري ذات التاريخ العريق ودُفن تحت الأنقاض 1554 من الرجال والنساء والأطفال، وتعرض حوالي 5000 آخرون لإصابات وحروق. لقد كان الثمن فادحاً لكن سرية «الترا» ظلت في مأمن(6).

مبارزة الأشعة اللاسلكية

كان سوء الأحوال الجوية هو الذي حمى الجزر البريطانية إلى حد كبير من غارات القصف الألماني الشديد في الأسابيع القليلة الأخيرة من سنة 1940، وقد أتاحت فترة التوقف تلك للعلماء في مؤسسة أبحاث الاتصالات السلكية واللاسلكية محاولة تطوير تدابير مضادة لجهاز اكس الذي كان يرمز إليه الألمان بعبارة «ووتان 1»، وكان نظام توجيه إلكتروني للطائرات الأكثر تقدماً ودقة استطاع أي طرف استنباطه.

وقد عمل العلماء البريطانيون ليلاً نهاراً وتوصلوا إلى أسلوب للتشويش على «جهاز اكس»، بحيث جعلوه يكاد يكون عديم الفائدة للألمان. لكن لم

---

(6) F.W. Winterbotham, The Ultra Secret (New York: Harper & Row, 1974), p. 59.
New York Times, November 10, 1940.
Royal Air Force, 1939-1945, vol. 1, p. 210.
Life, December 23, 1940.
The Times, London, November 16, 1940.

يكن يوجد وقت للاحتفال في المعسكر البريطاني. فقد علم البريطانيون عبر جهاز «الترا» أن العلماء الألمان قد توصلوا إلى شعاع لاسلكي للقاذفات الليلية أكثر دقة أيضاً ورمزوا إليه بعبارة «ووتان 2».

كان «ووتان 2» اختراعاً يدعو إلى الإعجاب. فلم يكن الشعاع يوجه القاذفة إلى هدفها فحسب، بل كان أيضاً ينبئ المسؤول عن القصف متى يُسقط حمولته من القنابل. غير أن علماء مؤسسة أبحاث الاتصالات السلكية واللاسلكية سرعان ما انكبوا على فحص جهاز التوجيه الإلكتروني الجديد المذكور والذي استخرجوه من طائرات الهنيكل الثلاث التي أسقطت في سماء إنكلترا.

تبين أنه يمكن بسهولة التشويش على جهاز «ووتان 2»، وكان جهاز إرسال هيئة الإذاعة البريطانية BBC في قصر الكسندرا مثالياً لمهمة التشويش – فقد كان يعمل على التردد المناسب. وقد سُمي هذا التدبير المضاد «دومينو».

كان العلماء البريطانيون حاذقين في استخدام وسائل دقيقة تجعل القاذفات المعادية تضل طريقها قليلاً وتسقط قنابلها بعيداً عن الهدف. وكانت الحيلة تتضمن خداع الطائرات الألمانية من دون أن تكتشف أنها مخدوعة. ففي غضون الليالي القليلة الأولى من استخدام جهاز بث الإذاعة البريطانية، تم حقن نظام «ووتان 2» بحد أدنى من القوة التي تعمل كإشارة كافية لإعطاء أساطيل القاذفات المقتربة خط سير مزيفاً بدرجة بسيطة من دون إثارة شكوك الملاحين. وتم تدريجياً رفع قوة جهاز إرسال هيئة الإذاعة لتحويل القاذفات الألمانية مسافة أبعد عن أهدافها، وفي خاتمة المطاف أدرك سلاح الطيران الألماني أنه تم اختراق «ووتان 2» وأصبح عديم الفائدة.

كان التشويش السريع على «ووتان 2» من أبرز المنجزات العلمية البريطانية. لكن هذا لم يوقف قصف لندن التي كانت هدفاً كبيراً واسعاً بحيث أنه كان باستطاعة القاذفات الألمانية الوصول إليه من دون أشعة لاسلكية. كما

أنه لم يوقف الغارات على الموانئ في جنوب إنكلترا، والتي كانت الطائرات الألمانية تصل إليها قبل أن يكون لدى البريطانيين الوقت الكافي للتشويش على أجهزة توجيهها[7].

اينيغما تفضح الأسطول الإيطالي

على ظهر سفينة حربية راسية في ميناء الإسكندرية، مصر، استلم الأميرال اندرو كاننغهام قائد البحرية الملكية في البحر الأبيض المتوسط رسالة حلت رموزها بواسطة «الترا» ومرسلة بواسطة آلة التشفير «اينيغما» الألمانية. جاء في الرسالة أن البحرية الإيطالية وسلاح الجو الألماني يستعدان للقيام بهجمات كثيفة مشتركة على القوافل في البحر الأبيض المتوسط. كان ذلك في 20 مارس/آذار سنة 1940.

كان قد أوكل إلى كاننغهام، رجل البحر الشديد المراس، مهمة خطيرة لا يفوقها في الأهمية سوى مهمة الأسطول البريطاني في حماية الجزر البريطانية. ومع أن سفنه كانت قديمة وقليلة العدد فقد كان يُتوقع من ذلك الايرلندي من مدينة دبلين حماية القوافل على طول النصف الشرقي من البحر الأبيض المتوسط الممتد لمسافة ثلاثة آلاف ميل.

فانبرى على الفور لاتخاذ الإجراءات اللازمة وأمر السفن الحربية الثلاث والتسع مدمرات وحاملة طائرات كانت موجودة في ميناء الإسكندرية بالإبحار. ثم قام، رغبة منه في إخفاء استعدادات الأسطول للإبحار بعيداً عن عيون الجواسيس الألمان والإيطاليين - الذين كانت مصر تعج بهم - بالذهاب إلى الشاطئ في وضح النهار مرتدياً ملابسه المدنية وحاملاً كيساً على كتفه يحتوي على أدوات الغولف.

---

(7) R.V. Jones, Most Secret War (London: Collins, 1976), pp. 125-126.
Author correspondence with Professor Reginald V. Jones, Aberdeen, Scotland, June 1991.

obeikandi.com

بعد أن خيَّم الظلام على الشرق الأوسط، انسل كاننغهام عائداً إلى سفينته الحربية وأبحر أسطوله الصغير من الميناء. وفي البحر انضم إلى الأسطول أربعة طرادات وأربع مدمرات.

كان كاننغهام يعلم مما جاء في الرسالة المشفرة أن الأسطول الإيطالي قد انطلق من نابولي، لكنه قبل كل شيء، كان عليه حماية سر أعظم وسيلة استخبارات عرفها التاريخ. لذا بعد بزوغ النهار أرسل الأميرال طائرة مائية ساندرلاند سريعة، وهي من النوع الذي يستخدم للدوريات بعيدة المدى في البحر، و«اكتشفت» الطائرة الأسطول الإيطالي، واقتربت منه إلى مسافة يمكن لمن كانوا في الأسطول رؤيتها منه.

كان المقصود من هذه الحيلة جعل الألمان والإيطاليين يعتقدون أن الاستطلاع الجوي، وليس كسر شيفرة «اينيغما»، هو الذي أدى إلى هجوم البحرية الملكية على الأسطول الإيطالي.

كان المارشال هرمان غورينغ، قائد سلاح الجو الألماني، قد وعد الأميرالات الإيطاليين بأن طائراته الحربية ستخرج للتعاون مع الأسطول الإيطالي في مهاجمة القوافل البريطانية. إلا أنه في 28 مارس/آذار سنة، عندما اقتنص كاننغهام سربين إيطاليين قبالة ساحل رأس ماتابان، في اليونان، لم تبقَ طائرة ألمانية واحدة في الجو.

استطاعت الطائرات المنطلقة من حاملة الطائرات التابعة للبحرية الملكية «فورميدابل»، بمساعدة قصف كثيف من المدمرات والطرادات، استطاعت إلحاق العطب بسفينة حربية إيطالية وإغراق ثلاثة طرادات ومدمرتين. وعاد ما تبقى من الأسطول الإيطالي وهو يعرج إلى نابولي وتوارى عن الأنظار.

على أثر الكارثة جرت عملية تحقيق في روما لمحاولة معرفة كيف استطاع البريطانيون معرفة مكان السفن الإيطالية المغيرة. وتم الاستنتاج بأن الطيارة المائية ساندرلاند هي المسؤولة عن ذلك.

وهكذا استطاعت «الترا» مرة أخرى أن توفر للبريطانيين ميزة استراتيجية

obeikandl.com

عظيمة، في وقت حرج في شرق البحر الأبيض المتوسط[8].

الاسمان الرمزيان «ريبيكا» و«أوريكا»

بحلول أوائل سنة 1941 كانت ـ وكالة الجاسوسية والتخريب السرية البريطانية SOE التي أوجدها ونستون تشرتشل وأهاب بها أن «تشعل النار في أوروبا»، ـ في موقف حرج. فقد كانت ترسل عدداً كبيراً من المظليين من جواسيس ومشغلي لاسلكي وسعاة داخل فرنسا وبلجيكا وهولندا التي كانت محتلة من قبل الألمان، وكان الكثيرون منهم يقعون بأيدي الجستابو.

وكان السبب الرئيسي لهذه الكوارث البشرية أن طياري سلاح الجو الملكي كانوا يجدون أنه من شبه المستحيل العثور على منطقة لإنزال الجواسيس فيها بالمظلات ليلاً. كان الطيارون ينطلقون من قواعد سرية في جنوب إنكلترا وكانوا يتلمسون طريقهم باستخدام النهار والطرق والبلدات كعلامات يستهدون بها. أما في الليل، وغالباً بوجود المضادات الجوية الألمانية، فقد كان الاهتداء إلى العلامات الأرضية الصحيحة أمراً مربكاً.

كانت معظم مناطق الإسقاط عبارة عن مروج، إلا أنه في ظلمة الليل كان أي مرج يبدو مثل أي من ملايين المروج الأخرى في أوروبا. لذا فقد اتصل رئيس SOE المعروف بالاسم الرمزي «D» بالخبراء الإلكترونيين البريطانيين وسألهم إن كانوا يستطيعون تطوير جهاز يسمح للطيارين أو الملاحين تحديد منطقة هبوط ليلاً دون لفت أنظار الألمان؟ تم إسناد مهمة قيادة فريق للقيام بالمشروع المعقد إلى جون برينغل وهو عالم ماهر وطيار أيضاً.

كانت خطوات SOE المتعثرة الأولى، برئاسة تشارلز هامبرو، قبل أقل من سنة، قد اتخذت مقراً لها في مكاتب بسيطة في 64 بيكر ستريت في لندن. ومنذ إنشائها كانت هذه الوكالة محاطة بالسرية التامة.

---

(8) Author's archives.

في هذه المرحلة من الحرب لم يكن أحد يعلم أن الجواسيس الألمان قد تسللوا إلى القيادة العليا البريطانية. لذا فقد أعطت وكالة الجاسوسية SOE أسماء وعناوين مختلفة لرؤساء القوات المسلحة البريطانية. كانت وزارة الطيران تعرف الوكالة بمجموعة من الحروف الأولى، والأميرالية بمجموعة أخرى. وكانت كلا القيادتين تظنان أن مكان المؤسسة السرية كان في عناوين غير العنوان الصحيح. ولم يكن هناك أي علامات أو إشارات في المبنى الكائن في 64 بيكر ستريت تدل على مقر الوكالة الجاسوسية.

كان هدف ونستون تشرتشل، حتى حين كان اجتياح ألمانيا لا يزال يتهدد الجزر البريطانية في أواخر سنة 1940، أن ينظم في أوروبا التي تكون بيد النازيين تحالفاً سرياً كبيراً وضليعاً من الجواسيس والمخربين المتحمسين والمدربين تدريباً جيداً. وعندما تقوم إنكلترا (كما كان المأمول، مع بعض الحلفاء) في خاتمة المطاف، باجتياح أوروبا، فعندها ينبري جيش سري لمهاجمة الألمان ويوقع الاضطراب والخراب بينهم. وحتى يحين ذلك الوقت، تقوم وكالة التجسس SOE في أوروبا بتوفير المعلومات الاستخباراتية وتبقي الجيش الألماني في حالة دائمة من التوجس.

وحتى حين كان العملاء السريون الأوائل يهبطون بالمظلات في أوروبا الغربية، كان «D» يعمل بجد ونشاط على توسيع، المؤسسة. فكان لكل بلد اجتاحه الألمان قسم خاص به في وكالة التجسس SOE ويرمز إلى القسم الفرنسي بالحرف «F»، والبلجيكي بالحرف «B»، والهولندي بالحرف «D»، والنرويجي بالحرف «N»، والبولندي بالحرف «P». وكان على كل قسم أن يدير عمليات سرية في بلده، وأن يقوم بتجنيد وتدريب عملائه الخاصين به. وعندما يتم إسقاط العملاء بأمان وإذا لم يتم القبض عليهم، فإنهم يقومون بدورهم بتنظيم خلاياهم السرية.

كان الرئيس هامبرو وضباطه يجندون كل من كان يظهر ميلاً لقتل الألمان أو تعذيبهم - فكانوا خليطاً عجيباً من الكاثوليك والشيوعيين والرأسماليين والفقراء المعوزين والبروتستانت والملكيين والحرفيين

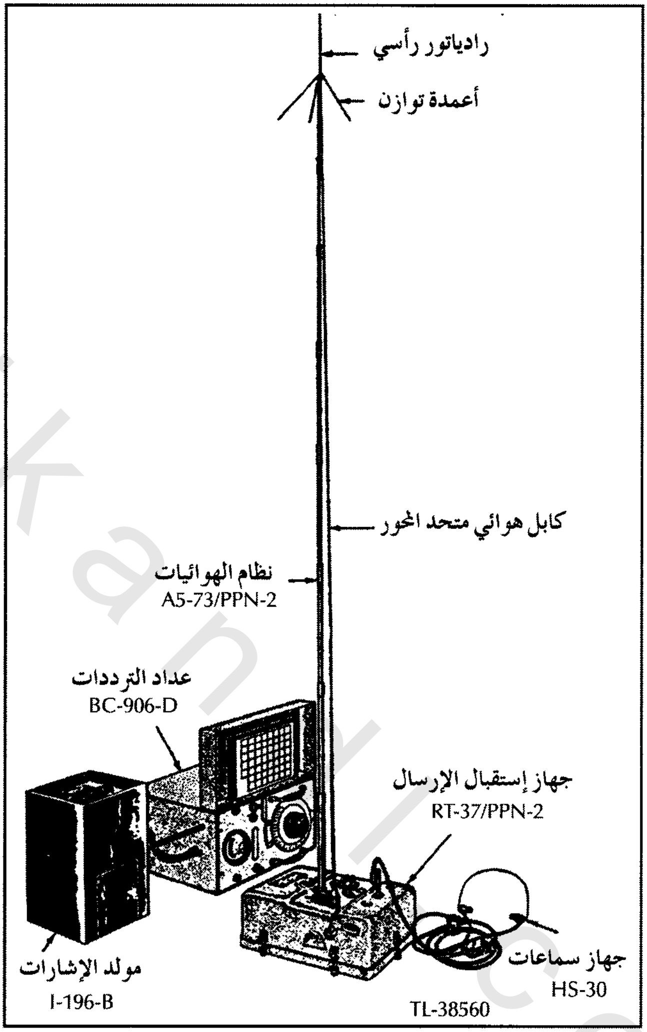

جهاز «يوريكا» موضوع على الأرض. الطائرات التي تحمل جواسيس أو مظليين تستهدف «يوريكا» بواسطة جهاز «ريبيكا» (مجموعة المؤلف)

والمحاميين وعمال المصانع. كانوا في معظمهم رجالاً ونساء عاديين لا يعرفون استخدام مسدس أو وضع عبوة ناسفة.

وبعد اختيارهم ليكونوا عملاء للوكالة، كانوا يُدربون ويتم توزيعهم على بيوت سرية قرب مطارات منعزلة، في جنوب إنكلترا بشكل رئيسي. وهناك كان العميل يُزود بقصة تغطية ويُرغم على تكرارها مراراً وتكراراً ويقوم رجال

الأمن البريطانيون في أثناء ذلك بلعب دور المستنطقين القساة من رجال الجستابو بتهديدهم وإرهابهم بالصياح.

عندما كان العميل يُبلّغ في حوالي الظهر بأن مهمته ستبدأ في تلك الليلة كان ضباط الوكالة يزودونه بأوراق شخصية مزيفة وبجهاز لاسلكي وبمظلة. وفي هنغار في المطار المظلم كان المرافقون يتأكدون مرة أخرى من أنه لا يوجد في العميل ما يوحي أنه كان في أي وقت من الأوقات في إنكلترا. فكانت الملابس والأحذية والقبعات والسجائر والنقود وأدوات الزينة - كلها كانت تفحص بمنتهى العناية. فوجود أرومة تذكرة حافلة أو مسرح أو إيصال بقالية أو رسالة مكتوبة باليد قد تؤدي إلى الحكم على العميل بالموت بعد تعذيب مخيف من قبل الجستابو.

وبعد أن يركب العميل في الطائرة كان ملاحوا سلاح الجو الملكي يكادون لا يشعرون بوجوده. لم يكن الملاحون لأسباب أمنية يعرفون الاسم الحقيقي للراكب الذي سيجتازون به القنال الإنكليزي ويشاهدونه يهبط إلى مصير مجهول. وكان هؤلاء الأشخاص المجهولون يعرفون باسم «جو» أو «جين» في مكان آخر في إنكلترا، كان خبير الإلكترونيات جون برينغل وفريقه يعملون في غضون ذلك على تطوير نظام يتيح للطيار إيجاد منطقة الإسقاط ليلاً في أراض معادية. وسمي الجهاز الثوري باسم رمزي هو «ريبيكا» و«أوريكا». كانت كلمة «ريبيكا» اختصاراً لعبارة recognition of beacons (التعرف على المنارة)، وأخته الصغيرة «أوريكا» تعني «وجدتها!» والتي تبحث عن «ريبيكا».

كانت «أوريكا» منارة متنقلة لا يتجاوز وزنها أربعة عشر رطلاً ويمكن ربطها في ساق المظلي الهابط. وعندما تصل «أوريكا» إلى الأرض كان العميل أو أفراد المنظمة السرية يُركبّون عليها هوائيها المطوي ويوجهونه إلى الأعلى.

أما «ريبيكا» فقد كانت جهازاً يوضع في طائرة. وعند اقتراب الطائرة من المكان المحدد كانت تبحث عن «أوريكا» وتتجه بواسطة شعاعها نحو منطقة

الإسقاط. كان لـ «أوريكا» ميزة ضرورية للعمليات السرية. فبدلاً من تشغيلها قبل ساعات من إسقاط المظليين، مما يعطي أجهزة مراقبة الجستابو الإلكترونية المتنقلة وقتاً كافياً لتحديد مكان الجهاز، فإنها كانت «تنطق» فقط عندما «يطلب» إليها ذلك من قبل «ريبيكا».

وسرعان ما تم استخدام جهاز الاستهداء وأُبلغ كل من الجواسيس الذين يتم إسقاطهم بالمظلات وطياروا سلاح الجو الملكي أنه كان يحقق الغرض المطلوب. فهذا الجهاز العلمي الذي تم تطويره من شأنه أن يلعب دوراً كبيراً في تكوين جيش سري كبير يكون جاهزاً لكي يتصدى للجيش الألماني عندما يتم غزو قارة أوروبا[9].

عبقري على فراش الموت «يغرق» السفينة بسمارك

كان الربيع يطل على أوروبا في الأول من شهر مايو/أيار سنة 1941، عندما وصل أدولف هتلر وحاشية كبيرة إلى غوتنهافن، وهو ميناء يطل على بحر البلطيق، لمعاينة السفينة الحربية الضخمة الجديدة «بسمارك»، التي كانت مفخرة البحرية الألمانية. لقد كانت منصة مدافع عائمة ذات مظهر مروع ومثير، وتزيد حمولتها سراً عما هو مسموح به بموجب معاهدة دولية عندما وضعت عارضتها الأساسية في سنة 1936.

أُطلق على السفينة الحربية اسم بسمارك واسمه الكامل الأمير أوتو ادوارد ليوبولد فون بسمارك، وهو رجل دولة بروسي وحّد الشعب الألماني في ظل حكومة إمبراطورية واحدة في القرن التاسع عشر. كان يعرف بالمستشار الحديدي وكان قد أعلن بأن المشاكل الكبرى يجب أن تتم تسويتها بواسطة «الدم والحديد» بدلاً من الخطب والقرارات.

(9) Author's archives.

obeikandl.com

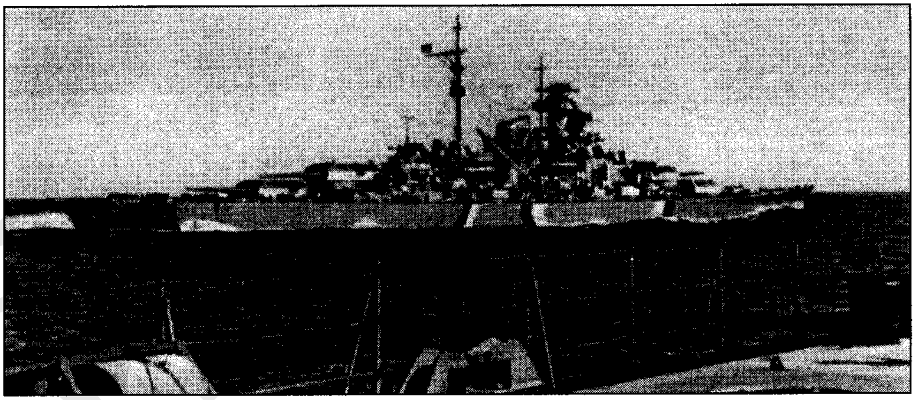

سفينة «بسمارك» فخر البحرية الألمانية، تتوجه إلى المحيط الأطلسي لمهاجمة قوافل الحلفاء المتوجهة إلى إنكلترا (بحرية الولايات المتحدة)

وقد صعد الفوهرر إلى السفينة في جو من الأبهة والخيلاء واستعرض طاقم البحارة الذين تم جمعهم على ظهر السفينة العلوي. وكان يسير خلفه وهو يتنقل في السفينة كابتن السفينة قبطان البحر ارنست ليندمان. ولأنه لم يكن قوي الجسم فقد قبل في البحرية الألمانية الإمبراطورية في سنة 1914 في بداية الحرب العظمى على أساس «فترة تجربة»، وظل وضعه على ذلك الحال حين تولى قيادة «بسمارك» في ربيع سنة 1941.

كان من السخرية أن يحظى ليندمان بمركز رفيع في قيادة السفينة الضخمة. ومنذ الأيام التي كان فيها طالباً في الكلية البحرية قبل سبع وعشرين سنة، كان يطبق شعار «المستشار الحديدي»: «أموت في خدمة الوطن».

وفيما كان ليندمان يرافق هتلر عبر السفينة أشار إلى صورة للأمير فون بسمارك رسمها فرانز فون لينباخ أشهر رسامي الأشخاص الألمان في تلك الفترة. كانت الصورة موضوعة خارج غرفة ليندمان فقال للفوهرر بأنه كان يخشى أن يلحق الأذى بالصورة التي لا تقدر بثمن خلال الأعمال القتالية.

فهز هتلر رأسه قائلاً: «إذا حدث أي شيء لهذه السفينة فلا أسف على هذه الصورة».

بعد أربع سنوات من التحضير وأربع سنوات أخرى في البناء في حوض بناء سفن هامبورغ المسمى «بلوهم أند فوس» أنتج هذا الحوض أثقل سفينة حربية (أكثر من خمسين ألف طن) أنزلت إلى الماء من قبل دولة أوروبية وكانت سرعتها القصوى أثنين وثلاثين عقدة، أي أنها كانت أسرع سفينة حربية عائمة في العالم.

كانت دروعها وأسلحتها تدعوا إلى الرهبة. وكانت كل من أبراجها الأربعة الرئيسية، اثنان في الأمام واثنان في الخلف (وأسماؤها انتون، برونو، قيصر ودورا) تحوي مدافع مزدوجة بقياس خمس عشرة بوصة ومداها الأقصى يزيد عن عشرين ميلاً. وكانت ثلاث محطات تحكم مدرعة توجه نيرانها وتستخدم تلسكوبات مجسامية متطورة ورادارا مركباً على قباب دوارة. وكانت السفينة الضخمة تزدحم باثنين وخمسين من المدافع الصغيرة المنتصبة.

في 17 مايو/أيار، بعد أقل من ثلاثة أسابيع من مغادرة هتلر للسفينة، تم فجأة إلغاء إجازات ملاحي بسمارك. وظهر اليوم التالي غادرت السفينة الرصيف في غوتنها فن في مهمة سرية تستغرق ثلاثة شهور اسمها الرمزي «مناورة الراين». كانت «بسمارك» مصحوبة بالطراد «الأمير أوجين» القوي الجديد ومتوجهة لتطوف في شمال الأطلسي لمنع قوافل التجهيزات المتدفقة من الولايات المتحدة إلى إنكلترا.

قبل ذلك ببضعة أشهر كان الرئيس روزفلت قد أعلن ـ إدراكاً منه أن الولايات المتحدة نفسها ستكون مهددة تهديداً خطيراً بالاجتياح إذا سقطت بريطانيا العظمى ـ أن أمريكا «ترسانة الديمقراطية». وكان قد انتزع من الكونغرس الموافقة على برنامج سمي «الإقراض - التأجير»، يتم بموجبه تزويد بريطانيا بالطائرات والدبابات وسيارات الجيب والمدافع والذخائر مقابل مبالغ اسمية.

في غضون ذلك، وفي أوائل سنة 1941، كان عدة ضباط من ذوي

الرتب العالية في الاستخبارات السويدية قد قرروا سراً أن إضعاف ألمانيا سيكون لمصلحة بلدهم الحيادي رسمياً. وبدأوا يعملون سراً مع الحركات النرويجية السرية التي كان يمثلها في ستوكهولم الكولونيل روشر لوند الذي كان قد أصبح صديقاً ومُخبِراً موثوقاً به للملحق البحري البريطاني في ستوكهولم، الكابتن هنري دنهام.

وفي ليلة 20 مايو/أيار زود رئيس أركان الاستخبارات السويدية الجنرال لوند بمعلومات سرية عن مغادرة «بسمارك» و«الأمير أوجين» ميناء البحر البلطيقي تحت غطاء جوي كثيف. فهرع لوند إلى السفارة البريطانية حيث قيل له إن الكابتن دنهام كان في أحد مطاعم المدينة. فلحق به إلى هناك وسلمه الأخبار الخطيرة. فترك دنهام طعامه وهرع إلى السفارة وبعث بالأخبار المفزعة إلى لندن.

نجم عن الاستخبارات الخطيرة كثير من التوتر في الأميرالية. بل سرت همسات في زوايا مظلمة بأنه إذا لم يتم التصدي لبسمارك فإنها قد تسبب مذبحة في شمال الأطلسي، بحيث أن بريطانيا ستعاني من اختناق نظراً لحاجتها للمواد الحربية والإمدادات وأنها قد تضطر حتى إلى طلب الصلح.

فيما كانت السفينتان الحربيتان الألمانيتان متوجهتين شمال ساحل النروج شاهدتهما وتبعتهما طائرتان تابعتان لآمرية الساحل التابعة لسلاح الجو الملكي. وسرعان ما أبحر الأسطول الحربي البريطاني المتواجد في سكابا فلو في شمال اسكتلندا وتوجه نحو الألمان المغيرين.

وفي بليتشلي بارك في إنكلترا كانت «الترا» تقوم بحل شيفرات سلسلة من الرسائل اللاسلكية المتبادلة بين «بسمارك» والقيادة البحرية في برلين. وكتدبير أمني لم تكن الإشارات الألمانية ترسل بالشيفرة المعتادة لاينيغما، بل بشيفرة تم استحداثها من أجل «مناورة الراين».

كان ألفرد نوكس الذي وضع بالتعاون مع آلان تورنينغ نظام «الترا»، في بيته في هيوهندن في وادي التيمز عندما تُلقى نبأ انطلاق السفينتين الألمانيتين

العظيمتين، وأمر بأن تُرسل له الرسائل المشفرة من أجل حلها.

كان أصدقاء نوكس يدعونه «ديللي» وكان مصاباً بالسرطان، لكنه أصر على البقاء في عمله بوصفه كبير محللي الشيفرات في بليتشلي. وكان في ذلك الوقت ضعيفاً ويتألم. فتم إسناده في سريره وتناول قلماً وورقة وانكب على الشيفرة الخاصة التي استخدمها بسمارك.

ولكنه لم يتمكن من كسر الشيفرة، ربما بسبب صحته المتدهورة. غير أنه تمكن من فك شيفرة طرف تابع لسلاح الجو الألماني والشيفرات الدبلوماسية المتعلقة بمهمة بسمارك، بحيث تمكن البريطانيون من متابعة السفينة المدرعة التي لا تخاف شيئاً.

استناداً إلى معلومات واردة من الرسائل التي قام ألفرد نوكس بفك شيفرتها خرج الطراداان «نورفولك» و«سافوك» من الضباب وشاهدا «بسمارك» و«الأمير أوجين» على بعد حوالي ستة أميال فقط، وهي مسافة قريبة جداً بالنسبة للمدافع الألمانية التي يبلغ مداها أكثر من عشرين ميلاً. وعادت السفينتان البريطانيتان بسرعة ودخلتا في الضباب لكنهما بقيتا تتبعان الوحش الألماني بواسطة الرادار.

في غضون ذلك أسرع الطراد «هود» والسفينة الحربية «أمير ويلز» وفتحتا النار على بسمارك التي ردت بالمثل حيث أصابت عدة قذائف الطراد «هود» فانفجر ولقي جميع الألف وخمسمئة رجل الذين كانوا على متنه حتفهم باستثناء ثلاثة منهم.

في أثناء المجابهة الشرسة التوت منصة الربان جراء إصابة مباشرة، وقتل أو جرح جميع الضباط والملاحين باستثناء القبطان، الكابتن جون ليتش. وخرقت قذائف أخرى السفينة البحرية أسفل الغاطس فأوقف ليتش الاشتباك.

لقد نجت «بسمارك»، ربما بأعجوبة، من المبارزة بواسطة المدافع الضخمة دون أن تصاب بأذى وتابعت سيرها بأقصى سرعة. اهتزت الأميرالية للنبأ. فقد كان يوجد عشر قوافل كبيرة في المحيط متوجهة إلى إنكلترا في

ذلك الوقت. لذا في غضون ست ساعات من تدمير «هود» صدرت الأوامر إلى سفينتين حربيتين أخريين وحاملة طائرات وأربعة طرادات وتسع مدمرات من أنحاء المحيط الأطلسي بالانضمام إلى الملاحقة.

وكانت السفينة «سافولك» طيلة الوقت تتعقب السفينة الألمانية الضخمة من مسافة مأمونة وترسل تقارير عن موقعها. وفي غضون ساعات جاءت تسع طائرات أقلعت من حاملة الطائرات «فكتوريوس» (المنتصرة) وألقت طوربيداتها لكن واحداً فقط أصاب «بسمارك» ولكن دون حتى أن تبطئ سرعتها.

بعد خمس ساعات وصلت رسالة قاتمة إلى الأميرالية: فقد فقدت «سافولك» في الظلام السفينة الضخمة بسمارك التي ظلت حرة طليقة في الأطلسي لمدة حوالي ثلاثين ساعة، ويفترض أنها كانت متجهة نحو قوافل السفن التجارية.

ويبدو أن الكابتن ارنست ليندمان كان واثقاً بأنه زعزع السفن البريطانية التي كانت تقوم بالملاحقة، لأنه أرسل رسالة لاسلكية طويلة إلى الأميرالية تضمنت تفاصيل الوضع الراهن وخطط المستقبل.

كان ألفرد نوكس في بيته يعاني من آلام شديدة وبعد حل الشيفرات الذي كان متواصلاً تقريباً لاتصالات «بسمارك» اللاسلكية. خلال أيام حل شيفرة تتضمن أمراً من القيادة البحرية في برلين تطلب من «بسمارك» التوجه بأقصى سرعة إلى ملاذ القاعدة البحرية في سانت نازير في غرب فرنسا.

تم إرسال هذه المعلومات الخطيرة على الفور إلى المركز العامل لاستخبارات الأميرالية الذي تمكن من تحديد الطريق الذي ستسلكه السفينة الحربية لبلوغ الميناء الفرنسي. وأقلعت طائرات قيادة الساحل في عدة اتجاهات وشاهدت إحداها السفينة المطلوبة «بسمارك».

وفي غضون ساعات كانت السفن الحربية البريطانية تتجمع حول السفينة الألمانية. وسجلت طائرة طوربيد من حاملة الطائرات «آرك رويال» ضربة

مباشرة ربما تكون قد أتلفت دفة التوجيه وجعلت الكابتن ليندمان يفقد السيطرة على السفينة. ثم فتحت السفينتان الحربيتان رودني والملك جورج الخامس مدافعهما عيار ست عشرة بوصة. وسجلت عدة قذائف، يزيد وزن كل واحدة منها عن الطن، ضربات عديدة على مفخرة البحرية الألمانية.

وأصبح ظهر بسمارك أتوناً من النيران. فقد تمزقت ملابس الرجال جراء الانفجارات. وكان الملاحون المجروحون يصرخون وكان الموتى مبعثرين في كل مكان.

ثم بدأت السفينة الجبارة تميل وتفقد توازنها وغطست مؤخرتها إلى مسافة أكثر عمقاً وارتفعت مقدمتها من الماء. وبدأ البحارة يقفزون في الماء من على ظهرها وأصبحوا يصعدون وينزلون مثل قطع الفلين.

وعندما نظر السباحون القريبون من مقدمة السفينة إلى الخلف، شاهدوا الكابتن ليندمان يقف على سطح السفينة. وسرعان ما بدأ يصعد منحدراً متزايداً في مقدمة السفينة. ثم قام القبطان الذي كان يعيش وفق عقيدة الأمير فون بسمارك «أبذل حياتي في خدمة الوطن». بتأدية التحية للسفينة المنهارة.

وسبح ويلهلم شميت مبتعداً بصعوبة عن السفينة التي قُضِي عليها في محاولة منه أن لا يتم شفطه إلى الأسفل عندما تغوص. وشاهد فقاعات هواء تصعد من أسفلها ثم انقلبت على جانبها مثل وحش كبير جريح.

فبعد ستة أيام من اكتشاف السفينة العملاقة وهي متوجهة إلى شمال الأطلسي وفي غضون أقل من سنة بعد أن غطست والدخان يتصاعد منها تحت الأمواج. انطلاقاً من أعرق التقاليد في البحرية الإمبريالية القديمة، بدلاً من أن يحاول ارنست ليندمان إنقاذ نفسه، فقد تعمد الغرق مع سفينته.

لقي حوالي ألفين من بحارة «بسمارك» حتفهم. وتم انتشال حوالي مئة من الألمان من الماء بواسطة السفن الحربية البريطانية. وكان هؤلاء الرجال منهكين وعيونهم غائرة. وبعد بضعة أيام، بعد أن آووا إلى الفراش وعولجوا طبياً وأطعموا طعاماً ساخناً، كانوا لا يزالون في حالة من الذهول. فلم يكونوا يتكلمون، حتى مع بعضهم البعض.

لقد تعرضوا إلى أكثر من صدمة مادية. فقد انهار إيمانهم. كانوا يعتقدون أن «بسمارك» لا يمكن أن تدمر.

وفي أواخر صباح السابع والعشرين من مايو/أيار، بعد بضع ساعات فقط من غرق «بسمارك» أعلن رئيس الوزراء ونستون تشرتشل عن هذا الإنجاز العظيم في مجلس العموم الذي تعالت فيه صيحات الفرح والاستحسان.

وعلى بعد عدة مئات من الأميال، في برلين، صدم الأميرال ايريك رايدر رئيس قيادة القوات البحرية لسماع النبأ. وكان يشعر بشك مريب. كيف استطاعت البحرية البريطانية تحديد مكان «بسمارك» وتعقبها في المساحات الشاسعة للمحيط الأطلسي؟

أحس رايدر أن شيفرة مناورة الراين الخاصة قد كسرت من قبل البريطانيين، وعقد رايدر مجلساً للتحقيق. وقال المجلس إنه «لم يحصل مخالفة أمنية بشأن جداول الشيفرة والرموز».

إذاً من الذي كان من المحتمل أن يكون قد ساعد البحرية البريطانية؟ هل يمكن أن يكون أحد الخونة في القيادة البحرية؟ وأشار أعضاء المجلس إلى أن خطوط هاتف البحرية بين برلين وباريس كانت تتم تقويتها من قبل فنيين ألمان. لذلك فإن تنصت الجواسيس البريطانيين على هذه الخطوط أمر محتمل جداً.

لم يكن أحد يعلم في قيادة البحرية في برلين ولا الذين نجوا من «بسمارك» أن مصير سفينتهم كان يتقرر إلى حد بعيد جراء الأعمال الخارقة التي كان العبقري البريطاني ألفرد نوكس يقوم بها في حل الشيفرات وهو على فراش الموت. وقد قيل لأسرته فيما بعد أن جهوده قد مكنت الأميرالية من تحديد موقع السفينة الرائعة ومن بعد ذلك إغراقها.

لقاء مساهماته الضخمة التي قدمها إلى بريطانيا العظمى في تطوير «الترا» وفي معركة «بسمارك»، قلده الملك جورج الخامس وسام سانت مايكل وسانت جورج. ولم يتمكن كاسر الشيفرات من الذهاب إلى قصر

باكنغهام، لذا فقد أرسل الملك رسولاً رفيع المستوى إلى بيته لتقليده الوسام.

ورغم وضع نوكس الضعيف إلا أنه أصر على أن ينهض من السرير ويرتدي ملابسه وظهر على الشرفة التي تطل على غرفته وملابسه متجعدة فوق جسمه النحيل. وقد رفض أن يقدم له أحد المساعدة ونجح في نزول الدرج من أجل المناسبة التي اجتمع أفراد أسرته من أجلها.

وبعد أن تم وضع الشريط السكسوني الأزرق والأرجواني مع النجمة الذهبية والبيضاء حول رقبته، كان نوكس قد أصابه من الضعف ما استوجب حمله إلى غرفة نومه.

لم يكن أحد يدرك مدى أهمية ما قدمه نوكس للمجهود الحربي أكثر من ونستون تشرتشل. ففي الوقت الذي كانت الحاجة تدعو إلى كل سفينة بحرية في القتال لإبقاء طرق الشحن في المحيط الأطلسي مفتوحة، عرض رئيس الوزراء على أسرة نوكس خدمات سفينة مدمرة لتحمله إلى المناخ الدافئ في البحر الكاريبي للمساعدة في شفائه. لكن مرض نوكس لم يمكنه من الحركة.

ثم حصل تشرتشل على علاج طبي خاص من أجله عبر طبيبه الشخصي اللورد موران. وأجريت ترتيبات مع سفارة الولايات المتحدة في لندن للحصول على فواكه استوائية طازجة، وهو نوع من الترف في إنكلترا في وقت الحرب والتي كان يشتهيها محلل الشيفرات.

بعد بضعة شهور توفي ألفرد نوكس[10].

---

(10) Donald McLachan, Room 39 (New York: Athenaeum, 1963), pp. 161, 400.
Burkard von Mullenheim-Rechberg, Battleship Bismarck (Annapolis, Md.: Naval Institute Press, 1979), pp. 228, 232.
Anthony Cave Brown, Bodyguard of Lies (New York: Harper & Row, 1975), p. 281.
Winston S. Churchill, The Second World War, vol. 2 (Boston: Houghton Muffin, 1950), pp. 331-332.

كتّاب الشيفرة السريين يُسكتون الأوركسترا الحمراء

مع أن حرباً ضارية كانت دائرةً في أوروبا لأكثر من عشرين شهراً فقد كان ليوبولد تريبر، البولندي المولد، في ربيع سنة 1942، يزداد ثروة من مشاريعه التجارية مترامية الأطراف. كان مهذباً ومفوهاً وشديد الأناقة (كان يشتري بزاته غالية الثمن من السوق السوداء)، وكان يعمل في البلدان المحتلة من قبل النازيين، حيث كان يقدم مواد البناء لمؤسسة تودت - التي كانت تتضمن مهندسي بناء شبه عسكريين وعمالاً يقومون ببناء تحصينات ومنشآت للقوات المسلحة الألمانية.

كان تريبر يملك شركتين: سيمكس في الشانزيليزيه في باريس، وسيمكسكو في رو رويال في بروكسل. كان يحمل هو ومدراؤه التنفيذيين بطاقاتٍ خاصة تسمح لهم بالدخول والتجول في جميع المنشآت العسكرية الألمانية تقريباً.

وكان المواطنون في باريس وبروكسل يستشيطون غضباً لمعرفة أن ذلك البولندي لم يكن يجني أرباحاً ضخمة من تعامله مع الرايخ الثالث (ألمانيا) فحسب، بل أيضاً لأنه كان يدعو أصدقاءه النازيين لتناول طعام نفيس من السوق السوداء في مطاعم فاخرة. ولكن ما لم يكن معروفاً لدى الألمان أو البلجيكيين أو الفرنسيين، هو أن تريبر كان من كبار الجواسيس المتخفين ويعمل لحساب الاتحاد السوڤيتي.

كان ذلك البولندي يقوم، خلال سنتين، بإنشاء شبكة جاسوسية واسعة النطاق أصبحت تُعرف لاحقاً لدى الجستابو باسم Rote Hapelle (الأوركسترا الحمراء). وقد كان العمل الذي يستتر خلفه مأموناً كل الأمان: كيف يمكن لرجل أعمالٍ أن يكون أكثر مناصرة للنازيين من أن يقدم لآلة حرب أدولف هتلر مواد بناء؟.

كان تريبر ينظم بمنتهى الذكاء «واجهتيه»، سيمكسكو وسيمكس، بحيث

أن جميع موظفيه تقريباً كانوا يعتقدون أنهم يعملون لدى شركة مشروعة. وكان أحد الكتبة، وهو نازي متحمس، من دون أن يعرف أن الشركة التي يعمل فيها هي مجرد ستارة للتجسس على الرايخ الثالث، كان يوفر مصداقية لهذا الزيف بأن كان يهتف «هايل هتلر» في كل مرة كان يجيب فيها على الهاتف.

وفيما كانت الأوركسترا الحمراء تتسع عبر جزء كبير من إمبراطورية الفوهرر الأوروبية، وبعد أن انشأ تريبر الخلية الأولى في بروكسل، انضم إليه فيكتور سوكولوف - غوريفيتش، وهو أحد العملاء السريين الروسي المولد الذي اتخذ اسماً مستعاراً: إدوارد كنت.

وكان كنت يقول بأنه رجل أعمال من الأوروغواي، ولتعزيز تستره، «استأجره» تريبر ليرأس سيمكسكو، متظاهراً بأنه مستورد دولي. وظل تريبر يرأس الشركة الشقيقة سيمكس، في باريس. على أن كنت لم يكن يقضي سوى الوقت القليل في مكتبه. فقد كان يستخدم البطاقة الخاصة التي وفرتها له الخدمات السرية الألمانية، ويطوف بحرية في أنحاء أوروبا ويجند العملاء ليضمهم إلى الأوركسترا الحمراء.

كان الجاسوسان الكبيران يُعرفان لدى أفراد حلقة الجاسوسية الروسية باسم الزعيم الكبير والزعيم الصغير. كان تريبر الممتلئ الجسم الزعيم الكبير، وكان كنت النحيل الزعيم الصغير.

في مارس/آذار سنة 1941 أرسل تريبر بواسطة اللاسلكي تقريراً كان له وقع القنبلة إلى الجهة المرتبط بها في موسكو، وهي الإدارة السياسية للدولة، التي كانت تعرف بالأحرف GPU. كانت عدة فرق مشاة ودبابات تسحب من فرنسا وبلجيكا، حيث كانت متمركزة لعدة شهور من أجل غزو إنكلترا، وأرسلت باتجاه الشرق إلى بولندا المحتلة من قبل النازيين قرب الجبهة الروسية.

بعد بضعة أسابيع أبلغ الزعيم الكبير أن أدولف هتلر كان على وشك

اجتياح روسيا، وتمكن أيضاً من إعطاء التاريخ التقريبي للهجوم.

لم يتأثر الدكتاتور السوفياتي جوزيف ستالين الذي كان قد وقع اتفاقية «صداقة» مع الفوهرر قبل سنة. فقد كتب على هامش أحد تقارير تريبر: «هذا مجرد استفزاز إنكليزي. ويجب العثور على القائم بذلك ومعاقبته!».

خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من شهر يونيو/حزيران أرسلت مختلف المواقع اللاسلكية التابعة للأوركسترا الحمراء إلى موسكو حوالي 250 رسالة، معظمها تتضمن تفاصيل خطط الاجتياح الألماني.

وقبل فجر 22 يونيو/حزيران سنة 1941 اندفعت جيوش ألمانية تتضمن ثلاثة ملايين رجل عبر الحدود الروسية على جبهة طولها ألفين من الأميال، من فنلندا جنوباً حتى البحر الأسود. وهكذا فقد أُخِذ جوزيف ستالين والجيش الأحمر على حين غرة.

وفي صباح السادس والعشرين من يونيو/حزيران، أي بعد أربعة أيام من الاجتياح، التقطت محطة ألمانية اعتراضية في كرانز على ساحل البلطيق رسالة مشفرة من جهاز إرسال سري علامة ندائه السرية PTX. وقد تبين للأجهزة الألمانية الكاشفة أن موقع اللاسلكي كان في مكان ما في بلجيكا.

وفي بضعة أيام لاحقة تم اعتراض إشارات من ثلاثة أجهزة إرسال سرية في برلين، وتبين أنها كانت تبث إشارتها إلى موسكو.

ورغم الأولوية القصوى المعطاة للقضاء على مواقع التجسس اللاسلكية، فقد تباطأ البحث جراء المناوشات الداخلية التي ابتليت بها أجهزة المخابرات المضادة. كان سلاح الجو الألماني يمتلك أقوى أجهزة اكتشاف الاتجاهات، لكنه رفض إعارته إلى فرع أمن الإشارة التابع للقيادة العليا للقوات المسلحة. ولم ينضم عملاء سلاح الجو الألماني ومعداتهم إلى البحث في برلين إلا بعد الكثير من الجدل والمشاحنة.

وبدأت لعبة القطة والفأر الإلكترونية بين المتعقِّبين والمتعقَّبين. فقد طاف رجال البوليس السري الألمان في برلين في سيارات عادية مرتدين زي

عمال الهاتف وأخفوا معداتهم في مخابئ الشوارع التي كانت تُستخدم لإخفاء العمل الذي ينفذ على الكابلات تحت الأرض.

كان مشغلوا لاسلكي الأوركسترا الحمراء كثيراً ما يغيرون الترددات والمواعيد، وكانوا يبثون رسائل قصيرة حتى لا يكون للألمان الوقت الكافي لتعقب مصدر بث الإشارات.

ولم يتم اقتحام البوليس السري الألماني لثلاثة مبان في برلين فيها أجهزة إرسال سرية إلا في أواخر أكتوبر/تشرين الأول سنة 1941. لكن الحظ حالف العملاء السوفيات. فقد تصادف أن مر أحد مشغلي اللاسلكي من رجال الأوركسترا الحمراء واسمه هانس كوبي بالسيارات التي تحمل معدات الكشف عن مصادر البث اللاسلكي، ولاحظ أن لوحة السيارة كتب عليها الحرفان الأولان اللذان يشيران إلى عبارة سلاح الجو الألماني Wehrmacht Luftwaffe WL.

فهرع كوبي إلى المباني الثلاثة وجمع العملاء معداتهم ولاذوا بالفرار. وخلال ساعة اقتحم المكان جنود ألمان مدججون بالأسلحة.

بعد إخفاقهم في برلين، ركز الباحثون في فرع الاستخبارات العسكرية المعني بمكافحة الجاسوسية، بقيادة الكابتن هنري بيبه، على جهاز الإرسال الأصلي OTX. وتركز البحث على بروكسل.

أرسلت برلين إلى بيبه، وهو من المحاربين القدماء في الحرب العالمية الأولى، أحدث معدات تحديد الاتجاه المحمولة والتي طورها العلماء الألمان. هذه الأجهزة التي لا تسترعي الانتباه يمكن حملها في حقيبة عادية وفيها هوائي داخلي.

في أوائل ديسمبر/كانون الأول، استطاع بيبه ورجاله تحديد منزل في شارع ديزاتريبات. وفي ليلة مظلمة أحاطوا بالمبنى ذي الثلاثة أدوار (طوابق) واندفعوا إلى الداخل. وتم اعتقال أحد مشغلي اللاسلكي وامرأتين انتابهما فزع شديد. ووُجد في المبنى صورتان وقالت إحداهما إنهما صورتا زعيمي حلقة الجواسيس - ليوبولد تريبر وادوارد كنت. وقالت إنها كانت تعرفهما باسم الزعيم الكبير والزعيم الصغير.

قام بييه بفحص الصورتين بدقة. كان يشعر بأنه رآهما من قبل. ثم تبين له أنهما كانا جارين له.

عندما تولى بييه التحقيق في بروكسل كان قد ارتدى ملابس مدنية، وانتحل شخصية رجل أعمال هولندي شديد المرح باسم أوتو ريبرت. ثم استأجر مكتباً في رو رويال. والشيء الذي لا يصدق هو أن الشركة المجاورة له كانت شركة باسم سيمكسكو - التي كان تستر وراءها إدوارد كنت (الزعيم الصغير). كان بييه كثيراً ما يمر بكل من كنت وليوبولد تريبر أمام مبناهما وكان الرجال يرفعون قبعاتهم لبعضهم البعض على سبيل التحية الدمثة.

ومع ذلك فقد ظلت الأوركسترا الحمراء تعمل. ولكن في ليلة 30 يوليو/ تموز سنة 1942، قاد بييه هجوماً على منزل في بروكسل يوجد فيه آخر بيانو للأوركسترا الحمراء، وهو الاسم الذي أطلقه الألمان على كل واحد من أجهزة البث. كان من بين المعتقلين صيد ثمين، جوهان وينزل وهو جاسوس سوفياتي كان رجال الجستابو يبحثون عنه منذ وقت طويل وكانوا يسمونه البروفسور إعجاباً منهم بجرأته ومنجزاته.

في غضون ذلك كان محللوا الشيفرات في برلين يجاهدون لتحديد لاعبين آخرين في الأوركسترا الحمراء. فقد كانت شيفرات البيانو التي كانوا يعرفونها على درجة من التعقيد يتعذر حلها. لذا فقد تم تكوين فريق من علماء اللغة والرياضيات برئاسة ويلهلم فوك وهو مدرس وملازم في الجيش.

كان فوك يركز جهوده على وثيقة مفحمة مملوءة بالرموز استطاع الكابتن بييه ورجاله إنقاذها من موقد عندما أغاروا على موقع البيانو في شارع ديزاتريبات في بروكسل في ديسمبر/ كانون الأول السابق. بعد جهود استمرت ستة أسابيع استطاع كاسروا الشيفرات التابعين لفوك إعادة تركيب كلمة واحدة: proctor (مراقب).

كان يُعرف عن السوفيات أنهم يضعون شيفراتهم استناداً إلى جمل مأخوذة من روايات مغمورة، وتذكرت إحدى المرأتين اللتين تم اعتقالهما في

شارع ديزاتريبات عناوين خمس روايات كانت موضوعة على المكتب هناك. وأدت هذه المعلومات إلى تفتيش عن عناوين في مكتبات بيع الكتب، واكتشف رجال فوك أربعاً من الروايات. ولكن سرعان ما تحول الاغتباط إلى يأس: فإن كلمة proctor لم ترد في أي من الروايات الأربع.

وباءت محاولات البحث في مكتبات عدة بلدان أوروبية بالفشل. ثم، في منتصف شهر مايو/أيار سنة 1942، بينما كان أحد العملاء يستعير كتاباً في مكتبة لبيع الكتب المستعملة في باريس عثر على الرواية المطلوبة. ففي تلك الرواية كان أحد الأشخاص يسمى proctor.

استناداً إلى الجمل التي تعد مفتاح الرموز تمكن كاسروا الشيفرات من فك رموز الرسائل، التي تضمنت معلومات قيمة من الاستخبارات التي تم انتزاعها عن الوحدات الألمانية وقوتها وعن أرقام الناتج الحربي. ولكن الثلاثمئة رسالة لم تتضمن أية إشارة إلى هوية «موسيقيي» الأوركسترا الحمراء.

بعد شهر، ظفر رجال فوك بالجائزة الكبرى، فقد تمكنوا من حل رموز رسالة أرسلت في أكتوبر/تشرين الأول الماضي من قبل GPU في موسكو إلى الزعيم الصغير إدوارد كنت. كان السوفيات يطلبون من كنت السفر من بروكسل إلى برلين ليتبين سبب توقف أجهزة البيانو الثلاثة عن العمل. وفي خرق عجيب للأمن كان GPU قد أوردوا أسماء وعناوين زعماء الأوركسترا الحمراء الثلاثة في برلين.

خلال بضع ساعات وضع رجال الجستابو الرجال الثلاثة تحت المراقبة. وكانوا جميعاً من الرجال البارزين في الرايخ الثالث: أحد كبار الموظفين في وزارة الاقتصاد الألمانية، ومؤلف وملازم بارز اجتماعياً في سلاح الجو الألماني.

كان الشخص الذي يمكنه مركزه من سرقة أكثر المعلومات الألمانية الحساسة هو ضابط سلاح الجو الألماني، هارو شولتز - بويسن الذي يبلغ

obeikandl.com

الثانية والثلاثين من العمر، والذي كان يشغل وظيفة محلل استخباراتي يستطيع الوصول دائماً إلى الوثائق فائقة السرية وغيرها من المواد.

وكان شولتز - بوينس وزملاؤه قد تمكنوا من إرسال أكثر من خمسمئة رسالة لاسلكية إلى GPU تتضمن تفاصيل عن الأسلحة الجديدة التي طورها العلماء الألمان فضلاً عن مجموعة كبيرة من الأسرار العسكرية الأخرى.

وقد تعقب رجال الجستابو زعماء الأوركسترا خلال عدة أسابيع، وتنصتوا على هواتفهم وفتحوا بريدهم بغية اقتناص أكبر عدد ممكن من حلقة التجسس السوفياتية.

وأخيراً في ليلة الثلاثين من شهر أغسطس/آب، انتشرت سيارات الجستابو السوداء في برلين. وتم، قبل الفجر، اعتقال شولتز - بونيس والزعيمين الآخرين وعدد كبير من أفراد الأوركسترا.

في أول الأمر أنكر السجناء أية معرفة بحلقة تجسس سوفياتية أو أية صلة بها. وادّعى الجميع انهم موالون لأودولف هتلر. ولكن بعد أسبوعين من التحقيق الوحشي بدأت ألسنتهم تتكلم. وبحلول آخر أكتوبر/تشرين الأول سنة 1942 كان أكثر من مئة من أفراد الأوركسترا قد أودعوا السجن وتم محو جهاز الجاسوسية من برلين.

ثم أخذ الكابتن بييه النشط وعملاؤه يركزون جهودهم على باريس في مطاردة الرئيس الكبير والرئيس الصغير. وقد نصبت شراك عديدة للزعيم الكبير - ليوبولد تريبر - لكن زعيم الأوركسترا المراوغ تمكن من تفادي كل واحد منها. غير أن الزعيم الصغير - إدوارد كنت - وقع في الشرك وألقي القبض عليه في مرسيليا، في جنوب فرنسا، حين وشى به أحد أفراد الأوركسترا.

وقد أدرك تريبر الذكي أن الأوركسترا الحمراء قد تمزقت وأن العملاء الألمان كانوا يقتفون أثره بهمة ونشاط فوضع تريبر الماكر خطة عبقرية: فقد

تدبر «موته» وإقامة جنازة له، إضافة إلى شهادة وفاة مزورة وذلك في بلدة صغيرة خارج باريس. كما تدبر أمر إرسال تأبين له إلى الصحف المحلية بعد «وفاته».

غير أنه قبل «دفنه ونسيانه» ذهب تريبر إلى طبيب أسنانه في باريس. وقد كشفت زوجة مذعورة لأحد أفراد الأوركسترا، تحت التعذيب، أن الزعيم الكبير كان يشكو من ألم في أسنانه، وأن زوجها أشار عليه بالذهاب إلى أحد أطباء الأسنان.

وفي بعد ظهر الرابع والعشرين من نوفمبر/تشرين الثاني - بعد يوم من «جنازة» تريبر - كان الزعيم الكبير يجلس على كرسي طبيب الأسنان حين اندفع الكابتن بييه وفرقة من رجاله وقد جردوا أسلحتهم إلى داخل عيادة الطبيب.

وفيما كان القيد يوضع حول معصم تريبر التفت إلى بييه قائلاً: «لقد أديت عملك على خير وجه».

لقي تريبر معاملة احترام على أمل انتزاع معلوماتٍ هامة منه. فكان بييه وضابط استخبارات ألماني آخر يرتشفون الكونياك والقهوة مع تريبر البولندي كل يوم، وكانوا يتبادلون القصص عن الجواسيس واستطاعوا بذكاء اكتشاف أسماء المزيد من أفراد الأوركسترا الحمراء.

وفي يناير/كانون الثاني سنة 1943 أبلغ بييه برلين أنه تم اعتقال البقية الباقية من حلقة التجسس السوفياتية.

وفي غضون ذلك وافق تريبر، أو تظاهر بالموافقة، على التعاون مع خطة استخباراتية ألمانية. فقد بدأ العاملون على أجهزة الإرسال الذين تم اعتقالهم يستخدمون أجهزتهم لإرسال رسائل ملفقة ببراعة إلى GPU في موسكو. وقد كانت GPU، إلى حد ما، من الغباء بحيث أنهم أخذوا يردون بإرسال معلومات عن شبكات تجسس سوفياتية أخرى في فرنسا وبلجيكا.

وفي 13 سبتمبر/أيلول سنة 1943، بعد عشرة أشهر من اعتقال الزعيم الكبير، وبينما كان في إحدى الصيدليات استطاع خداع المرافقين وتوارى عن الأنظار.

وهكذا أسدل الستار نهائياً على الأوركسترا الحمراء التي تعثرت جراء الجهود المضنية التي بذلها الملازم ويلهلم فوك ورجاله البارعون في كسر الشيفرات[11].

معجزة الهروب من الدنمارك

في أوائل صيف سنة 1941، تلقى ريجينالد جونز، رئيس الاستخبارات في هيئة أركان الجو البريطانية، مكالمة هاتفية من قائد الأسراب س. د. فلكين الذي كان مسؤولاً عن مدرسة إنكلترا الوطنية الملكية، وهي مركز لاستجواب أسرى الحرب وعملاء العدو المشكوك فيهم.

قيل لجونز إن الرجل الدنماركي الذي وصل للتو إلى إنكلترا في ظروف غامضة كان محتجزاً، وأن قصته كانت على درجة من الغرابة بحيث أن المحققين كانوا شديدي الارتياب. فأرادوا حضور جونز إلى المدرسة للتأكد من الجانب التكنولوجي لقصة الرجل الدنماركي.

ثم إن ذلك الرجل قد أحضر معه بعض الأفلام غير المظهّرة التي قال إنه التقطها لمحطة رادار في جزيرة فانو في الدنمارك. كان جونز متلهفاً لرؤية الدليل على ما كان يمكن أن يكون جهاز رادار ألماني متطور اسمه الرمزي «فريبا» Fraya. وقد كان جونز منهمكاً في محاولة تقدير ما أحرزه الألمان من تقدم في توفير المساعدة للمقاتلات الليلية الألمانية، والتي كانت تلحق خسائر فادحة بقاذفات سلاح الجو الملكي.

وكان جونز وزملاؤه يعرفون، من مختلف مصادر المخابرات، أن وحدة الرادار الألمانية الأساسية كانت «فريا»، وإذا تمكن البريطانيون من

(11) Leopold Trepper, The Great Game (New York: McGraw-Hill, 1977), pp. 14, 130, 206. Mark M. Boatner III, The Biographical Dictionary of World War II (Novato, Calif.: Presidio, 1996), p. 697.
Gilles Perrault, The Red Orchestra (London: Barker, 1968), pp. 37, 104, 219. Author's archives.

obeikandl.com

دراسة صورة للجهاز فقد يتمكنون من فهم الطريقة التي يعمل فيها وحدود تلك الطريقة. وتلك المعلومات، بدورها، قد تصبح مفتاح الكشف عن الجهاز الكامل للدفاعات الألمانية الليلية ضد قاذفات سلاح الطيران الملكي.

بعد وصول ريجينالد جونز إلى المدرسة الوطنية الملكية، استمع إلى القصة المدهشة التي حملها الرجل الدنماركي الذي كان يدعى توماس سينوم والذي كان ملازماً في سلاح الجو الدنماركي. وكان قد هرب من الدنمارك بعد استيلاء الجيش الألماني على بلده في أوائل سنة 1940، لكنه قرر بعد عدة شهور العودة إلى أملاكه في جزيرة فانو.

كان سينوم وصديق له قد اكتشفا أن صديقاً آخر لهما يحتفظ في حظيرة بطائرة صغيرة مفككة في مدينة أدونس على جزيرة فين في وسط الدنمارك. في ذلك الوقت كان سينوم متلهفاً للعودة للانخراط في الحرب. لذا فقد وضع وصديقه الأول مخططاً للهروب إلى إنكلترا.

استناداً إلى المهارات التي اكتسبها في سلاح الجو، أعاد سينوم والرجل الآخر تجميع أجزاء الطائرة، داخل الحظيرة، مستخدمين بعض قطع من الأسلاك بدلاً من أدوات الربط. ثم سرقا من الألمان ما يكفي من الوقود لإيصالهما إلى إنكلترا والذي كان أقل من استيعاب خزان الطائرة المخلعة الأوصال. لذا فقد اضطر إلى حمل المزيد من الوقود في عدة صفائح.

وأصبح الرجلان الآن مستعدين للرحيل. كانت الطائرة رابضة داخل الحظيرة. وعندما دار محرك الطائرة أخيراً (لم يكن يعمل منذ سنة)، صعد أحدهما إلى قمرة القيادة وفتح الآخر أبواب الحظيرة ثم تسلق إلى القمرة الثانية. وسارت الطائرة إلى الخارج وتسارعت حركتها الأمامية ثم أقلعت.

كان سينوم وصديقه يعلمان أن قطار شحن كان يمر بالقرب من المكان كل صباح في وقت محدد، وأنه كان يصفر عند تقاطع أحد الطرقات. لذا فقد تم توقيت الإقلاع بحيث يتزامن مع مرور القطار، وبذلك يختفي صوت محرك الطائرة فلا يسمع من مقر القيادة الألمانية القريبة من المكان.

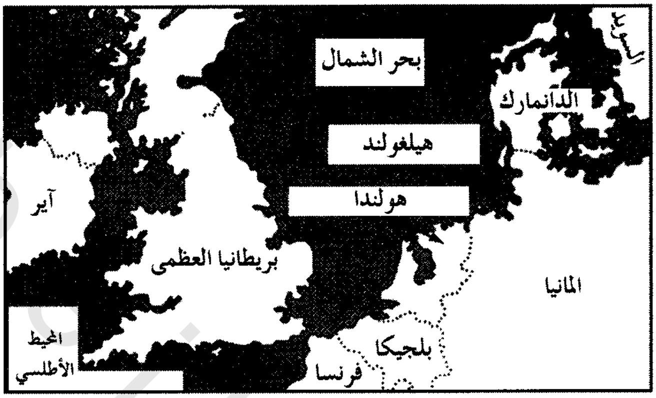

اثنان من الوطنيين الدنماركيين عبرا بحر الشمال جواً في عملية «مستحيلة» لإيصال استخبارات هامة للعلماء البريطانيين.

وحدد الرجلان، وهما طياران خبيران، خط سير الطائرة إلى إنكلترا التي تبعد بضعة مئات من الأميال إلى الجنوب الغربي من بحر الشمال. وفي حوالي منتصف الطريق تبين من مؤشر في قمرة القيادة أن خزان الوقود كاد أن يفرغ. وهناك كان الجزء الحاسم والأكثر خطورة في مغامرة الفرار. فتحرك سينوم إلى خارج قمرة القيادة وبدأ يتحرك بحذر على طول الجناح الذي كان زِلقاً بسبب الرطوبة. كان يريد إدخال نهاية أحد الخراطيم في الخزان، في حين كان رفيقه في الداخل يصب الوقود من الصفائح الاحتياطية داخل الخرطوم.

لم يكن أي منهما يعرف إن كان بالإمكان إنجاز تلك العملية. فقد يقع سينوم من على الجناح ويسقط ليلاقي حتفه في بحر الشمال. في تلك الحالة، كان من شأن رفيقه أن يموت حين تسقط الطائرة بسبب نفاذ الوقود. لكن ذلك الأسلوب الدقيق تكلل بالنجاح وتابعت الطائرة سيرها. وقرب إنكلترا اعترضتهم مقاتلات سلاح الجو الملكي التي رافقت الطائرة القديمة إلى أحد المهابط.

وبعد أن قص توماس سينوم قصته في المدرسة الوطنية الملكية، لم يكن ريجينالد جونز ليصدق ما سمع. فما من أحد من البريطانيين كان

obeikandi.com

يستطيع أن يصدق أن الطائرة الصغيرة، قد قطعت تلك المسافة الطويلة، حتى بعد أن تم شرح عملية التزويد بالوقود. لماذا لم تكن الصفائح التي تضمنت الوقود الإضافي والخرطوم في الطائرة عندما هبطت في إنكلترا؟ لأنهما تخلصا منها بعد صب الوقود، كما أوضح سينوم.

وقد شعر المحققون من MI-5، وكالة الاستخبارات البريطانية المضادة بأن سينوم ورفيقه قد لفقا خدعة من اختراع وكالة التجسس الألمانية لتسريب جاسوسَين خارقي الذكاء كانت مهمتهما كسب ثقة البريطانيين.

ورغم شكوك جونز فإنه علق الحكم حتى يرى الفيلم الذي لم يكن مظهّراً والذي قال سينوم إنه لجهاز «فريا» على جزيرة فانو. وقد شعر جونز بإحباط شديد عندما علم بأن عملاء MI-5 قد أخذوا الفيلم إلى وكالة حكومية من أجل تجهيزه وأنه كله تقريباً قد تعرض للتلف.

لم يبق من الفيلم سوى صورتين لكن جونز صعق عندما شاهدهما. فقد كانت الصورتان قطعاً لجهاز «فريا» في حالة العمل. وهنا تأكد جونز أن سينوم كان وطنياً حقيقياً خاطر بحياته لأخذ صور للرادار الألماني المفروضة عليه حراسة شديدة والطيران بها إلى إنكلترا رغم كل الصعوبات.

وقد اصطدم جونز مع رجال MI-5. فهم ظلوا يعتقدون أن سينوم جاسوس وأرادوا أن يودعوه في السجن. لكن جونز انتزعه من قبضتهم وفعل كل ما بوسعه لتعويضه عن المعاملة البشعة التي لقيها منذ وصوله إلى إنكلترا.

وسرعان ما ساعد الفيلم الذي أحضره سينوم جونز وزملاءه على فك أسرار جهاز «فريا» وإيجاد تدابير مضادة للتشويش على الرادار الألماني الذي كان يلحق خسائر فادحة بالقاذفات البريطانية[12].

---

(12) Winston Churchill, The Second World War, vol. 2 (Boston: Houghton Muffin, 1950), p. 203.
Ralph Barker, The RAF at War (Alexandria, Va.: Time-Life, 1981), p. 83.

أفكار بارعة لكسب الحرب

كانت مهمة علماء البحث العلمي البريطانيين استنباط أفكار عبقرية لإلحاق أكبر قدر من الضرر بالعدو، وإنقاذ أكبر عدد ممكن من الأرواح، وأن يكسبوا الحرب في آخر المطاف ضد ألمانيا وإيطاليا الفاشية. وكانت هذه المجموعة من العلماء الموهوبين (وبعض العالمات) يتلقون اقتراحات غريبة من صحفيين ومن عامة الجمهور. وقد كانت تلك الأفكار الرامية إلى القضاء على أدولف هتلر وبينيتو موسوليني ونظاميهما تلقى الاهتمام مهما كانت غير مألوفة.

كان أحد المخططات يستهدف بركان ڤيزوف وهو البركان النشط الوحيد في الأراضي الأوروبية. كان يبعد عن جنوب شرقي نابولي حوالي سبعة أميال وكثيراً ما كان يثور عبر القرون، حيث كان ينفث البخار والرماد والحمم البركانية في الهواء. وكانت أكبر الخسائر في الأرواح قد حصلت في سنة 1906 حيث دُفِنت عدة بلدات برمتها تحت أطنان لا حصر لها من الحمم البركانية.

وجاءت اقتراحات من استراليا وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة من العديد من كبار الأشخاص المثقفين بإسقاط طوفان من القنابل في «حنجرة» بركان ڤيزوف، مما يؤدي إلى «تفجير جنوب إيطاليا».

واقترح آخرون من القطاع المدني أفكاراً ترمي إلى إيقاف الجنود الألمان والإيطاليين الزاحفين فجأة من خلال قيام القاذفات البريطانية بإسقاط «كميات ضخمة من المواد اللاصقة»، مثل دبس السكر أمام الجنود المعادين. وإذا فشل ذلك الأسلوب في إيقافهم تقوم قاذفات لاحقة بإسقاط لفّات من الأسلاك الشائكة «لجعل الجنود يتعثرون ويقعون في شرك الأسلاك».

MarkW. Boatner III, The Biographical Dictionary of World War II (Novato, Calif.: Presidio, 1996), p. 32.
Author correspondence with Professor Reginald V. Jones, Aberdeen, Scotland, March1991.

books4arab.com

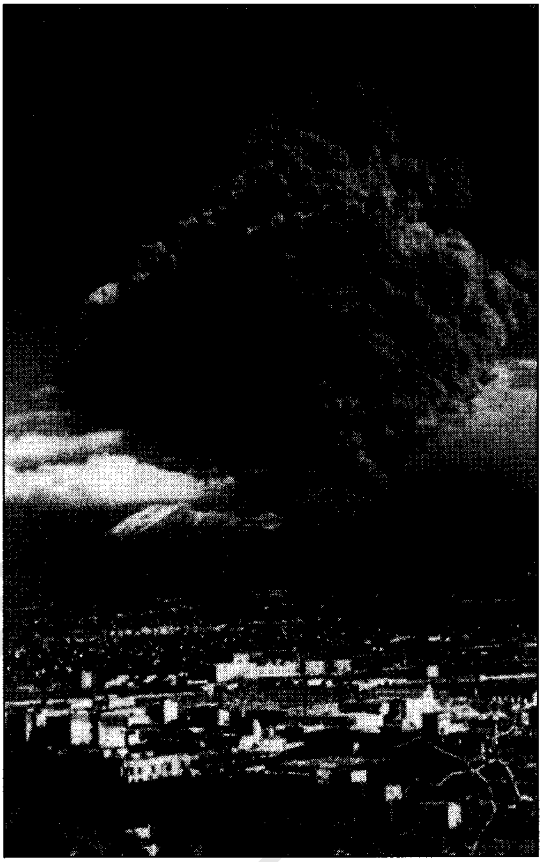

فكرة بريطانية «لمحو جنوب إيطاليا» بإسقاط قنابل في بركان ڤيزوف قرب نابولي. (مجموعة المؤلف)

obeikandl.com

واقترح أحد مواطني دوربان في جنوب أفريقيا أن يتم شحن «ملايين الأفاعي السامة» من جنوب أفريقيا وإطلاقها ليلاً فوق برلين وغيرها من المدن الألمانية الرئيسية. واقترح آخر أن يتم إشباع الملايين من أوراق الملفوف بسم قاتل وإسقاطها على المواشي في مراعي ألمانيا وإيطاليا مما يؤدي إلى حدوث مجاعة في البلدين.

وقد استنبط كثيرون من أصحاب الأفكار مخططات ليستعملها سلاح الجو الملكي، حيث يتظاهر أسطول من ثلاثين إلى أربعين مقاتلة بالفرار عندما تواجهه طائرات معادية. وفي أثناء فرار تلك الطائرات المفترض من القتال، تقوم تلك الطائرات بنفث رشاش من الكلوروفورم من مؤخرتها.

وعندما يشعر الطيارون الألمان الملاحقون للطائرات البريطانية بوقوع كارثة بريطانية، فإنهم يطيرون نحو الفخ الذي نصب لهم ويفقدون الوعي ومن ثم تسقط طائراتهم.

وتضمن اقتراح آخر تركيب «سكاكين طويلة حادة» في بطون الطائرات التي تقوم بمطاردة الطيارين المعادين الذين يقفزون بالمظلة من الطائرات المعطوبة، وتطير فوقهم بحيث تقطع السكاكين حبال مظلاتهم. وهذا من شأنه أن يسقط الألمان ليلاقوا حتفهم.

وأنهى أحدهم مخططه العجيب لإلحاق الهزيمة بالألمان والإيطاليين بأن تنبأ بأن «الحرب سوف تنتهي في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر في 4 مايو/أيار سنة 1945، وتكون بريطانيا هي المنتصرة».

ومن العجيب أن صاحب النبوءة التي صدرت عنه قبل حوالي أربع سنوات من استسلام ألمانيا بالفعل، قد اخطأ في حسابه باثنتين وسبعين ساعة فقط[13].

عملية جاي: خدعة معقدة

بعد تعيين ونستون تشرتشل رئيساً للوزراء بمدة وجيزة في ربيع سنة 1940، اتخذ على الفور خطوات لإطلاق هجوم جوي ضد الرايخ الثالث. في ذلك الوقت كانت بريطانيا معلقة بأظافرها ومعرضة لخطر الاجتياح الوشيك من قبل القوات المسلحة الألمانية.

كان تشرتشل، الذي كان يطلق عليه اسم البولدوغ، قد أرسل رسالة إلى اللورد بيفر بروك (كان اسمه عند الولادة ويليام ماكسويل ايتكن)، وهو أحد بارونات الصحافة الأثرياء الذي قبل منصب وزير إنتاج الطائرات:

(13) Gavin Lyall, ed., The War in the Air (New York: Morrow, 1969), pp. 10 1-102. Author's archives.

من دون جيش قادر على مجابهة الألمان في القارة، ثمة طريقة واحدة نتمكن بواسطتها من إلحاق الهزيمة بالرايخ الثالث، وهي من خلال القيام بهجوم مدمر، لا يبقي ولا يذر، تقوم به قاذفات قنابل من العيار الثقيل، تنطلق من هذا البلد ضد موطن النازيين. فيجب أن يكون بوسعنا أن نسحقهم بهذه الوسيلة التي لا أرى من دونها وسيلة [لكسب الحرب].

بحلول منتصف سنة 1941 كانت قيادة القاذفات في سلاح الجو الملكي قد مضى عليها سنة ونصف السنة وهي ترسل غارات فوق ألمانيا. وفي ذلك الوقت فقط اقتنع تشرتشل بضرورة الأمر بالقيام بدراسة رسمية لتقييم الدقة الحقيقية لمهام قاذفات القنابل.

وقد أوكلت المهمة إلى ديفيس بنسوزان - بوت، أحد أعضاء سكرتارية وزارة الحرب. فقام خلال فترة عدة أسابيع مع فريق من الخبراء بتقييم حوالي ستمئة صورة أخذت من قبل القاذفات المجهزة بكميرات ليلية فوق الأهداف.

في 18 أغسطس/آب سنة 1941، قدم بوت تقريره الذي خلق صدمة. ففي غارات على الرايخ الثالث جرت في يونيو/حزيران ويوليو/تموز كان 25 بالمئة فقط من الملاحين الذين أدعوا أنهم أصابوا أهدافهم قد أصابوا أهدافهم بالفعل. ففي الهجمات ضد المنطقة المعروفة باسم الروهر، حيث تم تسخير القوة الصناعية الجبارة لألمانيا لتوريد المعدات لآلة الحرب النازية، كانت قنبلة واحدة فقط من أصل عشر قنابل قد سقطت على مقربة خمسة أميال من الهدف. وقد ضاعت عدة طائرات في الأجواء المظلمة التي كانت تخيم على الرايخ الثالث.

لقد كانت المشكلة الرئيسية لقيادة القاذفات تكمن في عملية الملاحة. كانت الأشعة اللاسلكية المنطلقة من إنكلترا والتي توجه القاذفات تصل إلى مئتي ميل أو أقل. وبعد تجاوز هذا الحد كان على ملاح الطائرة أن يحدد مساره استناداً إلى سرعة الطائرة وسرعة الريح التقديرية.

أثار تقرير بوت زوبعة في الأوساط العليا للحكومة البريطانية. ودعى نقاد من ذوي النفوذ إلى تسريح قيادة القاذفات على أن تؤول طائراتها وملاحوها إلى الجيش والبحرية. وقد صعق ونستون تشرتشل بدوره من التقرير. ولكنه دعم مع ذلك قيادة القاذفات وأصدر توجيهات إلى علماء بريطانيا بأن يقوموا بتطوير وسائل ملاحية مساعدة متقدمة بالسرعة الممكنة.

وسرعان ما وضع مهندسون بقيادة ر. ج. ديبي، في مؤسسة أبحاث الاتصالات السلكية واللاسلكية، اللمسات الأخيرة على أجهزة ملاحية محسنة عرفت باسم «جي» Gee وهذا الاسم مشتق من الحرف الأول لكلمة "grid" (شبكة).

قسَّم جهاز «جي» أوروبا إلى شبكة لاسلكية تمكن، نظرياً، ملاحي القاذفات، الذين يستخدمون خرائط «جي» خاصة وأنابيب أشعة كاثود، من تحديد مواقعهم من دون معالم أرضية مرئية. وكان النظام يتضمن إرسال نبضات لا سلكية متزامنة من ثلاث محطات أرضية في إنكلترا، توجه القاذفات إلى أهداف على بعد أكثر من أربعمئة ميل من قواعدها.

أجريت تجارب على جهاز «جي» فوق إنكلترا ومنها إلى داخل المحيط الأطلسي. لكن القادة في هيئة أركان الطيران كانوا متشككين، رغم أن النتائج كانت مشجعة.

ثم تم تركيب أجهزة استقبال «جي» بشكل سري على ثلاث قاذفات أرسلت فوق ألمانيا دون إبلاغ مسبق لمارشال الجو تشارلز بورتال، أعلى ضابط في سلاح الجو الملكي، وأركانه. وعاد الملاحون من مهامهم وهم يشيدون بالمساعدة القيمة التي وفرها لهم جهاز «جي» في إيجاد طريقهم إلى الأهداف.

ثم تقرر في قيادة القاذفات مواصلة استخدام تلك الطائرات المزودة بجهاز «جي» لتدل على الطريق، وتحدد الأهداف بواسطة أنوار تستهدي بها الأسراب الرئيسية في عدة مهمات فوق الرايخ الثالث.

وفي ليلة 13 أغسطس/آب سنة 1941، وصلت إلى إنكلترا رسالة تقض المضاجع. فقد تم إسقاط إحدى الطائرات المزودة بجهاز «جي» فوق ألمانيا. فحطام الطائرة من شأنه أن يوفر لضباط استخبارات القوات الجوية الألمانية دليلاً ساطعاً على أن سلاح الجو الملكي كان يستخدم أسلوباً جديداً للعثور على الأهداف ليلاً أو في أحوال الطقس الغائمة. فاستناداً إلى تلك المعلومات يمكن للألمان تطوير تدابير مضادة لإحباط عمل «جي»، الذي لن يصبح متاحاً للاستعمال على نطاق عام في سلاح الجو الملكي قبل سبعة شهور أخرى.

كانت أنباء الحادثة ضربة كبيرة موجهة إلى قيادة أركان الجو، لأن سلاح الجو الملكي كان إما سيلتزم باستعمال جهاز «جي» خلال معظم سنة 1942، أو أنه سيضطر إلى استعمال الأساليب البدائية القائمة التي أثبتت أنها غير دقيقة إلى حد كبير.

كان مارشال الجو بورتال، الذي وصفه تشرتشل بأنه «نجم سلاح الجو الملكي غير المنازع» شاحب الوجه إزاء احتمال وقوع جهاز استقبال «جي» بأيدي الألمان، ولكونه لم يُحط علماً بالمهمات الجوية الاختبارية.

فطلب إلى هنري تيزارد، المستشار العلمي لأركان الجو، عقد اجتماع للخبراء لتقرير ما يجب عمله بشأن احتمال وصول جهاز استقبال «جي» إلى أيدي الألمان.

في الاجتماع الذي ساده جو من الوجوم، أعرب رئيس استخبارات أركان الجو ريجينالد جونز عن رأيه في احتمال وجود واحد من أصل ثلاثة بأن يكون الألمان قد تمكنوا من استخراج جهاز استقبال «جي» يكون صالحاً للاستعمال في موقع سقوط الطائرة. فثمة احتمال أن يكون الجهاز قد أصابه التلف جراء الاصطدام أو بواسطة شحنة التدمير التي زود بها في حال حدوث مثل ذلك الطارئ.

كان جونز يرى أن الخطر الرئيسي يكمن في أن حوالي خمس وسبعين

قاذفة قد أسقطت أو سقطت فوق الأراضي الألمانية منذ أن تم تركيب أول جهاز استقبال «جي» في إحدى القاذفات وفُقِد الجهاز. ولذا فإن عدداً غير معروف من الطيارين البريطانيين (ربما يتراوح عددهم بين عشرين أو ثلاثين) الذين يعلمون عن وجود جهاز «جي» كانوا في معسكرات ألمانية لأسرى الحرب.

إن ما كان يقلق العلماء بشكل خاص هو أن الألمان قد يكونون سمعوا بعض الحديث عن جهاز «جي» عند تنصتهم على أحاديث أسرى الحرب، الأمر الذي يوحي لهم بأن يفتشوا في حطام أية قاذفة من ذلك السرب في المستقبل.

وأشار تبزارد على ريجينالد جونز بوضع مخطط من شأنه أن «يبعد الألمان عن الموضوع» إلى أن يتم تزويد جميع القاذفات بجهاز «جي» بعد سبعة شهور. وقبل جونز التحدي بلهفة شديدة. فبالنظر لخطورة الموضوع البالغة (حملة القصف بعيد المدى الذي قد يقرر مصير الحرب) كان جونز متأكداً أن بوسعه الحصول على ما يشاء من موارد بريطانيا العظمى ضمن حدود المعقول.

كانت أول خطوة يتخذها جونز هي «محو» كلمة «جي» من مفردات عقول العلماء الألمان. ولتحقيق هذا الهدف قام بزرع معلومات لجعل نظرائه في برلين يستنتجون أن قيادة القاذفات كانت تقوم بإدخال نظام ملاحي مختلف كل الاختلاف، وهو تكتيك لتحويل انتباه الألمان عن الجهاز «جي».

وضع جونز بضعة أجهزة إرسال أشعة لا سلكية سبق استخدامها لتوجيه غارات القاذفات عبر القنال الإنكليزي إلى برست وفرنسا. وانطلاقاً من حيلته الجديدة أمر بتغيير مواقع هذه الأشعة على الساحل الشرقي لإنكلترا.

وعمل على أن يوحي للجهات الألمانية ذات الكفاءة العالية، التي كانت تراقب الاتصالات اللاسلكية البريطانية، بأن نظاماً ملاحياً جديداً يجري تركيبه ودعاه باسم «أشعة جيه»، أو «جيه» اختصاراً.

كان يوجد سبب وجيه لاختيار الاسم «جيه». فقد كان جونز وزملاؤه يأملون بأنه سيضلل الألمان في حال كونهم قد تنصتوا على معسكر لأسرى الحرب من طياري سلاح الجو الملكي، وسمعوا الطيارين البريطانيين يذكرون جهاز «جي». وكان من المأمول أيضاً أن يعتقد الألمان بأنهم لم يسمعوا جيداً ما كان البريطانيون يتحدثون عنه، وأنهم كانوا بالفعل يتحدثون عن «جيه». وقد يستنتج المترجمون الألمان أن اللهجة البريطانية هي التي جعلتهم يسمعون كلمة «جي» عندما سمعوا كلمة «جيه».

وبما أنه كان من المتوقع أن يلتقط المراقبون الألمان أشعة «جيه»، فقد طُلِب إلى قاذفات سلاح الجو الملكي أن تستخدم الأشعة في طريق ذهابها وإيابها للقيام بالمهمات المقررة لها، على سبيل إضافة لمسة لتزيد من انخداع الألمان بالحيلة.

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه المكائد كان الجواسيس الألمان الذين تم القبض عليهم في إنكلترا منذ اندلاع الحرب، يزودون جونز بقناة لإرسال معلومات مزورة إلى الرايخ الثالث. ففي خلال ساعات من إعلان الحرب في 3 سبتمبر/أيلول سنة 1939، قام عملاءMI-5 وكالة مكافحة الجاسوسية) ورجال البوليس السري من سكوتلنديارد بالانتشار في الجزر البريطانية لمطاردة الجواسيس الألمان والقبض عليهم. كان أمام ملاحقي الجواسيس مهمة ضخمة: فقد كان يوجد 365 اسماً على قائمة الجواسيس من فئة (أ).

كان بعض العملاء الألمان متخفين في قرار مكين حيث أنه كان قد تم زرعهم في إنكلترا قبل ذلك بأربع أو خمس سنوات من قبل الاستخبارات الألمانية. وعندما سحبت الشبكة، التي ألقيت في جميع أنحاء الجزر البريطانية، تم القبض على جميع جواسيس هتلر تقريباً وتم إعدامهم. وبقي بعض منهم ينتظرون تنفيذ حكم الإعدام.

رأى الميجور توماس روبرتسون، البالغ من العمر تسعاً وعشرين سنة، والذي تميز في الخدمة أثناء القتال في القارة مع فرقة سيفورث في 1940، أن

إعدام الجواسيس كان ينطوي على خسارة للإمبراطورية البريطانية. بعد أن تم إجلاءه من دنكرك اختفى تار، وهو الاسم الذي كان أصدقاؤه يعرفونه به، في ظروف غامضة. فقد انضم، في الواقع، إلى MI-5 وشطب اسمه من قوائم الجيش البريطاني وكأنما لم يكن له وجود.

وقد خطرت للميجور روبرتسون فكرة مخطط خداع يمكن من خلاله الاستفادة من الجواسيس الألمان الذين تم القبض عليهم في إنكلترا بدلاً من شنقهم ودفنهم ونسيانهم، وذلك لخداع الجهات الألمانية المسؤولة عنهم. وقد استخدم روبرتسون شخصيته الآسرة وبلاغته وأقنع أركان الطيران واستخبارات الطيران بأن جاسوساً مزدوجاً من شأنه أن يعزز المجهود الحربي أكثر بكثير من جاسوس ميت.

انطوى المخطط على إعطاء جميع الجواسيس الذين تم القبض عليهم خيارين. فإما أن يشنقوا في غضون بضعة أيام أو أن يقوموا بإرسال معلومات ملفقة إلى رؤسائهم السابقين في ألمانيا. وقرر الجميع تقريباً أنهم سينفذون طلبات سجانيهم.

وتقرر أن يتم توجيه هؤلاء العملاء المزدوجين من قبل جماعة خداع بريطانية بالغة السرية أطلق عليها اسم مناسب «لجنة العشرين». إن العدد 20 في الأرقام الرومانية هو «XX» لذا فقد أصبحت اللجنة تدعى لجنة double cross (لجنة دابل كروس).

عندما كان يتم القبض على الجواسيس كانوا يُقتادون إلى مركز تحقيق لجنة XX في لاتشمير هاوس، وهو دار نقاهة سابقة «للضباط البريطانيين الذين كانوا يعانون من اضطراب عصبي جراء صدمة القذائف في الحرب العالمية الأولى». فبعد أن يقال للجواسيس الذين تم القبض عليهم أنه بوسعهم إنقاذ أنفسهم من حبل المشنقة، كانوا يسارعون إلى إعلام المسؤولين البريطانيين (الذين يعرفون باسم «ضباط الحالات») عن مكان إخفاء أجهزتهم اللاسلكية «آفو» AFU التي تعمل على الموجة القصيرة ويكشفون عن شيفرتهم السرية لإرسال الرسائل إلى ألمانيا.

obeikandi.com

وكجانب آخر أساسي من عملية «جيه» اتصل ريجينالد جونز بصديق له في لجنة XX واقترح أن يتم استخدام الجواسيس المزدوجين، الذين تظن الاستخبارات الألمانية أنهم لا يزالون يتجولون أحراراً في إنكلترا، لإرسال رسائل لا سلكية تتضمن معلومات مضللة.

قامت عقول ذكية في لجنة XX، بمساعدة جونز، بإعداد نصوص تم إعدادها بعناية فائقة. كان يتعين على منشئ الرسائل أن يكون بالغ الحذر في التأكد من أن يُظهر للألمان أن المعلومات التي يتم إرسالها أكثر تفصيلاً وصعوبة من أن يكون باستطاعة عميل منفرد الحصول عليها، أو أن يجعل الجهات الألمانية تشك وتستنتج أن العميل قد تم القبض عليه وتحويله إلى عميل مزدوج.

كان الجواسيس يستخدمون أجهزة الإرسال «آفو» ذات الحجم الصغير والرموز الشخصية، ويرسلون معلومات مزيفة محددة في حين كان ضباط الحالات التابعون للجنة XX يجلسون وراء أجهزتهم للتأكد من أن الألمان، وليس البريطانيين، هم الذين تجري خيانتهم.

كان أول إرسال اقترحه جونز يتضمن حديثاً وهمياً يدعي الجاسوس أنه سمعه بين اثنين من طياري سلاح الجو الملكي في أحد بارات أحد الفنادق الفخمة في لندن. وقد وضعت لمسة صدق في الرسالة بجعل المكان الذي جرى فيه الحديث مكاناً من المتوقع أن تنطلق فيها الألسن من جراء تناول المشروبات الكحولية.

ورد في النص الذي تم إعداده أن أحد الطيارين كان في غضب شديد حيث أنه كان يشتكي قائلاً: «لماذا حصل الكولونيل بلانك على وسام رفيع؟ فكل ما فعله هو تقليد الأشعة الألمانية - وذلك بعد سنة من طرحها للاستعمال من جانب الألمان!» وقد أجاب زميله: «ولكن يجب أن نقر بأن لدينا الآن أشعة «جيه» التي ترشدنا إلى أهدافنا. فقد نجحت في إرشادنا في برست [فرنسا]، وسوف تتوفر لنا أيضاً فوق ألمانيا».

تضمنت رسالة مزورة أخرى من ابتكار جونز تم إرسالها أن الجاسوس الألماني كان يتحدث مع ضابط ذي رتبة متدنية من سلاح الجو الملكي وأنه أخبره أن «البروفسور ايكرلي» كان يلقي محاضرات على وحدات قيادة القاذفات بشأن نظام الملاحة الجديد «جيري» (Jerry. وهنا أيضاً كان جونز يعرف أنه من غير المتوقع أن يكون جاسوس منفرد دقيقاً تماماً، كان ضباط الحالات في لجنة XX يأملون بأن المراقبين الألمان سوف يستنتجون أن «ايكرلي» Ekkerly هو البروفسور «ت. ل. ايكرسلي Eckersley»، أكبر خبراء الأمواج اللاسلكية في بريطانيا العظمى. وكانت الفكرة أن الألمان سوف يستنتجون أن «جيري» هي «جيه».

بعد بضعة أيام أرسلت شعبة هامبورغ للاستخبارات الألمانية، التي كانت مسؤولة عن الجاسوسية في بريطانيا العظمى والولايات المتحدة، إطراءً حاراً للعميلين الألمانيين اللذين غامرا بحياتهما من أجل الفوهرر وحصلا على استخبارات بالغة الأهمية.

لم يكن ريجينالد جونز يستطيع أن يتأكد من أن عملية «جيه» قد آتت ثمارها. غير أنه كانت ستظهر دلائل ملموسة في الأشهر اللاحقة أن مخطط الخداع المعقد قد أربك الاستخبارات والعلماء الألمان وحيرهم. التقط جهاز «الترا» تقريراً بأن الألمان وضعوا فرقة تجريبية للإشارات الجوية على طول القنال الإنكليزي في فرنسا لاستكشاف موضوع أشعة «جيه»(14).

---

(14) Winston S. Churchill, The Second World War, vol. 3 (Boston: Houghton Muffin, 1952), pp. 139, 147, 208.
London Gazette, October 14, 1947.
Ralph Barker, The RAF at War (Arlington, Va.: Time-Life, 1981), pp. 85, 92.
Robert Watson-Watt, Three Steps to Victory (London: Odhams, 1957), pp. 394-395.
Author's archives.
R.V. Jones, Most Secret War (London: Collins, 1976), pp. 218-219, 221.

طياروا إنكلترا الانتحاريون

في منتصف سنة 1941 تجمع فريق من طياري سلاح الجو الملكي من ذوي الخبرة في مهبط في شمال غرب إنكلترا من أجل القيام بمهمة محاطة بسرية فائقة. وقد أخذ الطيارون، كما قال أحدهم «يتنقلون من مكان لآخر حول مائدة الطعام لمدة ساعتين محاولين اكتشاف أيهم يبدو على جانب كبير من الذكاء بحيث يعرف شيئاً عن العمل الذي تطوعنا للقيام به».

بعد ظهر ذلك اليوم، تجمع الطيارون لسماع قائدهم، رئيس السرب لويس سترينج، ليشرح لهم المهمة الفريدة - والخطيرة. فقد بين لهم أن الخسائر الجسيمة التي تكبدتها القوافل، التي كانت تنقل تجهيزات ومعدات حربية للاتحاد السوڤياتي، كانت ناجمة لا عن الغواصات الألمانية وبعض السفن الحربية المغيرة فحسب، بل أيضاً عن طائرات ذات مدى بعيد لسلاح الجو الألماني في المحيط الأطلسي، وقاذفات عادية على طول طريق القطب الشمالي.

لمواجهة هذه الطائرات الألمانية تم تشكيل الطيارين المتطوعين ليكونوا أعجب فريق في سلاح الجو الملكي: وحدة السفن التجارية المقاتلة. وكان أهم عنصر في العملية المبتكرة جهاز خارق جديد في الحرب طوره العلماء البريطانيون ومهندسوا الطيران.

تم تجهيز خمس وثلاثين سفينة مصممة لحماية القوافل بمنجنيقات في مقدمة السفن. كان كل منجنيق يتكون من مدرج طوله خمسة وثمانون قدماً وضعت على طوله ترولي تحمل مقاتلة هاريكين (سميت «هاريكات» لاحقاً) مدعمة بمجموعة من صواريخ ثلاث بوصات بقطر ستين قدماً. فباستخدام جنيحات بثلاثين درجة يستطيع الطيار القيام بإقلاع تام دون أن يفقد ارتفاعه.

هذه السفن ذات التصميم الخاص سميت السفن التجارية القاذفة للطائرات. فمع أنها تقوم بنقل البضائع فإنها توفر حماية للقافلة ضد القاذفات الألمانية.

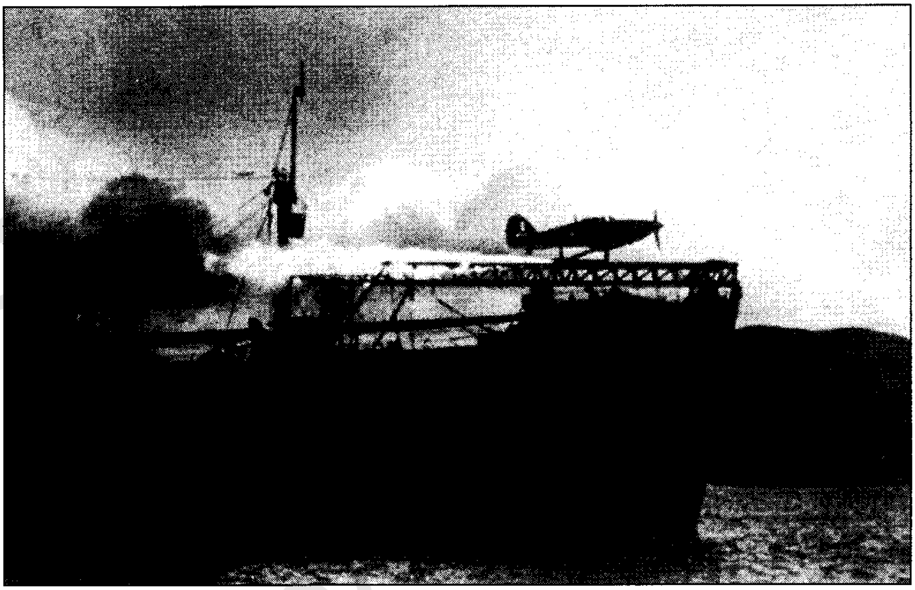

إطلاق طيار «كاميكاز» (انتحاري) تابع لسلاح الجو البريطاني بواسطة جهاز صاروخي.

وسرعان ما اتضح لطياري وحدة السفن التجارية المقاتلة أنهم سيكونون نسخة سلاح الجو الملكي لما كان اليابانيون يسمونه طياري «الكاميكاز» (الانتحار). فكل انطلاق من وحدة السفن التجارية المقاتلة كان انطلاقة وحيدة الاتجاه. وكانت طائرة الهريكين عادة بعيدة عن البر بحيث أن الطيار كان عليه أن يقفز بالمظلة فوق المحيط أو أن يحاول البقاء مع الطائرة وهو يهبط هبوطاً اضطرارياً فوق الماء. وإذا سارت الأمور على ما يرام - «إذا» كبيرة - يقوم الطيار بركوب الأمواج بقارب صغير يمكن نفخه إلى أن يتم التقاطه من قبل سفينة مارة - إن وجدت.

في إحدى المناسبات تم قذف الضابط الطيار الاستيرهاي بالمنجنيق من إحدى سفن وحدة السفن التجارية المقاتلة أثناء التوجه إلى الاتحاد السوڤياتي في شمال النروج في المحيط المتجمد الشمالي. وكان قد نال التقدير لتدميره قاذفة هينكل ألمانية وإعطاب طائرتين ألمانيتين أخريين. ففي أثناء المواجهات جرح في فخذه وأصيبت طائرته الهريكين بتلف شديد. لكنه هبط بالمظلة إلى

المحيط ووجد نفسه وقد ابتسم له الحظ: فقد هبط في مكان قريب من سفينة صديقه وتم انتشاله من الماء في غضون دقائق.

وبحلول الوقت الذي تم فيه استبدال سفن وحدة السفن التجارية المقاتلة التي تقوم بمهام حماية القوافل بحاملات مرافقة جديدة، كانت طائرات هاريكات قد اصطادت سبع طائرات ألمانية وشردت العشرات من الطائرات الأخرى[15].

(15) Gavin Lyall, ed., The War in the Air (New York: Morrow, 1969), pp. 235, 236.

Obeikandl.com